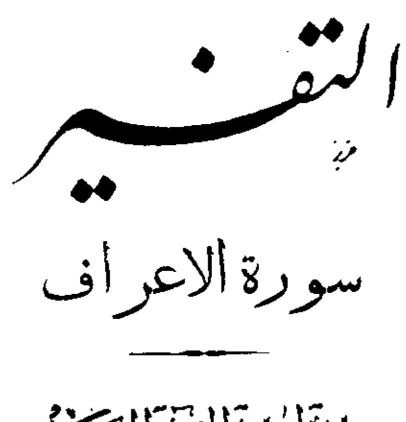


سورة الاعراف

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم لسورة الأعراف

« المص . كتاب أنزل إليك فلا يكن فى صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين » :

هذه سورة الأعراف ؛ والأعراف هى المواضع العالية الممتازة ، تُخصَّص لأهل الشرف والامتياز . وسميت هذه السورة بسورة الأعراف ، لما جاء فيها من حديث عن أشراف أهل القيامة الذين يجعلهم الله إذ ذاك فى مكانة الإشراف على الخلق : على المؤمنين وهم يستقبلون ما وُعدوا من نعيم خالد ، وعلى الكافرين وهم يستقبلون ما أنذروا من عذاب مقيم . اقرأ قوله تعالى : « وعلى الأعراف رجال يعرفون كُلاً بسيماهم ، ونادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم » ، وقوله تعالى : « ونادى أصحاب الأعراف رجالا يعرفونهم بسيماهم ، قالوا ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون » .

وقد نزلت هذه السورة فى العهد الأول للدعوة المحمدية ، يوم كان الرسول صلى الله عليه وسلم يضع الحجر الأساسى لصرح الاسلام ، ويدعو الى توحيد الله ، بالتبشير والإنذار ، والتذكير بالمَثُلات التى خلت من قبل ؛ فلم يكن عهد نزولها عهد تشريع ، أو تفصيل الأحكام ، إذ لم يكن هناك أمة أو جماعة تنضوى تحت لواء واحد فتحتاج الى تشريع أو تفصيل لأحكام ؛ وإنما كان هناك صوت عال بالحق ، جرىء فيما أمره الله ، يرنّ فى أجواء مكة وما حولها ، ويدوى فى آذان قوم عاكفين على أصنام لهم ، ينحتونها بأيديهم ثم يعبدونها من دون الله قانتين ، ويتوجهون إليها مخلصين . كان هناك ذلك الصوت العالى الجرىء يدعو الى توحيد الله ، والى التحرر من ربقة الأوهام ، والى السمو بالكرامة الانسانية والعقل البشرى عن وهدة الشرك التى ارتكس فيها الانسان ، فعبد الحجر ، وعبد الشمس والقمر .

هـذا ما كان فى ذلك العهد الذى نزلت فيه سورة الأعراف . وهى أطول سورة نزلت فى ذلك العهد ، وأكثر ما نزل قبلها من سور الجزأين الأخيرين .

وهى تـكاد تكون مقررة لجميع ما ذكر فى السور التى نزلت قبلها ، ولهذا لا تجد فيها نداء للمؤمنين ، ولا خطابا لهم ، ولا لأهل الـكتاب ؛ وإنما تجدها تخاطب الانسانية فى أوسع حدودها ، وبأعم أسمائها :

« يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يُوَارِى سوْءاتِكم ، وريشاً ؛ ولباسُ التقـوى ذلك خير » .

« يا بنى آدم لا يفتننّـكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة » ؛

« يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد » ؛

« يا بنى آدم إمّا يأتينّكم رسل منكم يقصّون عليكم آياتى ، فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون »

الخطاب فى ذلك كله لأبناء آدم ، للناس جميعا ، لا للعرب ولا للمسلمين ؛ حتى وهى تتحدث عن الشرك وتصف الشركاء لا تريد خصوص شرك العرب ، ولا خصوص شركائهم ، وإنما تريد الشرك فى أقدم عهوده ، يوم طغى الوهم على الناس فأنساهم خلقهم وكفروا بخالقهم ، يوم خلق الله البشر من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن اليها : « هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن اليها ، فلما تغشّاها حملت حملا خفيفا فمرّت به ، فلما أثْـقَلت دَعوَا الله ربهما لئن آتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين . فلما آتاهما صالحاً جعلا له شركاء فيما آتاهما ، فتعالى الله عما يشركون » .

وكذلك لا تجد فيها أحكاما ولا نظما ، ولا تفصيلا لعبادة من العبادات ، وإنما تجدها تتحدث عن المبادئ العامة ، والأخلاق الفاضلة ، تدعو اليها الناس جميعا ، لا فرق بين جنس وجنس ، ولا دين ودين ؛ تتحدث عن المبادئ التى لو آمن الناس بها ونزلوا على حكمها لساد العالمَ السلمُ ، وشملته الطمأنينة . اقرأ : « قل إن الله لا يأمر بالفحشاء ، أتقولون على الله ما لا تعلمون . قل أمر ربى بالقسط ، وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد ، وادعوه مخلصين له الدين ، كما بدأكم تعودون » ، « وكلوا واشربوا ولا تسرفوا » ، « قل من حَرّم زينة الله التى أَخرَج لعباده والطيباتِ من الرزق » ، « قل إنما حرّم ربّىَ الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والإثمَ والبغى بغير الحق ، وأن تشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا ، وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون » ، « ولـكل أمة أجل » ، « لا نـكلف نفسا إلا وسعها » ، « ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها » ، « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض » ، « والبلد الطيب يَخرُج نباتُه بإذن ربه ، والذى خَبُثَ لا يَخرُج إلا نكِداً » ، « أوَلم يَهد للذين يرثون الأ

من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم » ، « ساصرف عن آياتيَ الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق ، وإن يرَوْا كل آية لا يؤمنوا بها ، وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا ، وإن يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا » ، « فلما نَسُوا ما ذُكِّروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بَئِيس بما كانوا يفسقون » ، « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » .

وسورة الأعراف بعد ذلك تقص علينا قصة الانسانية من يوم نشأتها ، فتذكر خلق الانسان وتصويره ، وتمكينه فى الأرض ، وما أخذ الله عليه من عهد فطرى ، بمنحه العقل ، وتوضيح الدلائل : « وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتَهم وأشهدَهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى » .

وتذكر آدم وزوجه ، وتأثرهما بقوة الشر ، ووسوسة الشيطان لهما حتى أخرجتهما مما كانا فيه ، وتضع العلاج الذى يقى الانسان شر التأثر بالهوى والشيطان : « إن الذين اتقوا إذا مسَّهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون » .

والسورة أيضا تتلو علينا كتاب الدين العام ، دين الله الحق فى فصوله المتعاقبة من عهد آدم ونوح ؛ وتذكر فى ثنايا ذلك ما نزل بالأمم التى عتت عن أمر ربها ، وكذبت رسلها ، وأن منهم من أهلكوا بالصيحة ، ومنهم من أخذتهم الرجفة ، ومنهم من أغرقهم الله ، ومنهم من ابتلاهم بأنواع من العذاب : « فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقُمَّل والضفادع والدم آيات مفصلات » . ثم هى تقفّى على ذلك بآخر فصل من فصول هذا الكتاب الإلهى الخالد ، فصل النبوة المحمدية : « قل يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا ، الذى له ملك السموات والأرض ، لا إله إلا هو يحيى ويميت ، فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته ، واتبعوه لعلكم تهتدون » . هذا تعريف مختصر بسورة الأعراف .

أوائل السور

قال الله تعالى : « المٓصٓ » :

هذه حروف مركبة تكوّن فى رسمها شكل الكلمة ، ولكنها لا تقرأ قراءة الكلمات ، وإنما تقرأ ساكنة هكذا : ألف ، لام ، ميم ، صاد . وقد ابتدأ الله بهذه الحروف وأمثالها تسعا وعشرين سورة من كتابه العزيز ، كلها مكية إلا قليلا نزل بالمدينة أول عهد المسلمين بالهجرة اليها .

واللغة العربية لا تعرف لهذه الفواتح معنى غير التى تتركب منها الكلمات . ولم يرد تفسير أثرى صحيح يبين المعنى المراد منها ، كما ورد فى مثل الصلاة والزكاة وسائر الكلمات التى أثبتت

الشريعة لها معنى جديدا . ولهذا وذاك ظلت تلك الفواتح منذ أن تناول الناس التفسير والتأويل موطن أقوال وتأويلات.

غير أن لهذه الحروف فى جميع مواطنها خاصة لا تكاد تفارقها ، وهى أنها يعقبها غالبا ذكر الكتاب ، والتنويه بشأنه ، وتوجيه الأنظار إليه . والكتاب هو الدين كله ، وهو الدعوة كلها ، وهو الفرقان القائم يغذى الحق ويغزو الباطل فى جميع العصور والأجيال :

«الم ، ذلك الكتاب لا ريب فيه ، هدى للمتقين » ، « الم ، الله لا إله إلا هو الحى القيوم . نزّل عليك الكتاب بالحق » ، « الر ، تلك آيات الكتاب المبين » ، « المر ، تلك آيات الكتاب ؛ والذى أنزل اليك من ربك الحقُّ » ، « الر ، كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور » ، « طسم تلك آيات الكتاب المبين » ، « طس ، تلك آيات القرآن وكتاب مبين . هدى وبشرى للمؤمنين » ، « طسم ، تلك آيات الكتاب المبين . نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون » ، « ص ، والقرآن ذى الذكر ، بل الذين كفروا فى عزة وشقاق » ، « حم ، تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم » ، « حم ، تنزيل من الرحمن الرحيم . كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون . بشيرا ونذيرا » ، « حم عسق ، كذلك يوحى اليك والى الذين من قبلك اللهُ العزيز الحكيم » ، « ق ، والقرآن المجيد » .

وبهذه الخاصة نستطيع فقط توجيه الحكمة فى افتتاح هذه السور بتلك الحروف على وجه لا يعرفه القوم فى لغتهم ولا كلامهم .

إن حياة الرسول كانت فى ذلك العهد الذى نزلت فيه تلك السور حياة كفاح وجلاد ، وخصومة ولدد : يبلغهم رسالة ربهم فيعرضون عنه ويتهمونه بالكذب ؛ يتلو عليهم من كتابه فيقولون : هذا سحر ، ويقولون : إنما يعلمه بشر ؛ ولكنهم مع هذا يرون للقرآن سلطانا على نفوسهم ، وتأثيرا فى عقولهم ، فهم إذا سمعوه أخذتهم روعته ، وملكتهم قوته ، وبهرتهم بلاغته ، فماذا يصنعون ؟

يوصى بعضهم بعضا أن يصموا آذانهم ويغلقوا قلوبهم : « وقالوا قلوبنا غُلْفٌ » ، « وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه ، وفى آذاننا وَقْر ، ومن بيننا وبينك حجاب » .

يوصى بعضهم بعضا أن يتصايحوا فى مجلسه ، وينطقوا باللغو فى أثناء قراءته ، على نحو ما تفعل السوقة من التهويش والتشويش : « وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوْا فيه لعلكم تَغلبون » .

هكذا كان موقفهم من القرآن ؛ فابتدأ الله بعض السور التى نزلت فى ذلك العهد بهذه الحروف التى لا يألفها القوم ، قرعا لأسماعهم ، وتوجيها لأنظارهم ، وقسراً لهم على استماع

القرآن ، واستخداما للغريزة الانسانية المولعة باستكشاف الغريب واستطلاع العجيب . ذلك بأنهم إذا سمعوا قارئا يتلو « الٓمٓصٓ » « حمٓ عٓسٓقٓ » ، عجبوا لما سمعوا ، وأنصتوا بعد ما أعرضوا ، فيدخل القرآن بذلك آذانهم ، ويخدش عقولهم ، ويصل بدعوته الى نفوسهم ، وكان ذلك طريقا الى انتفاعهم بالقرآن ، وحملا لهم على الدخول فى هداية الرحمن .

وبعد : فهذا كتاب الكون لم يزل كثير من أسراره محجبا لا تدركه العقول ، ولا تهتدى إليه الأفكار ، على شغف الانسان باستطلاع خباياه ، وجده فى معرفة خفاياه ، واستكشاف غرائبه : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » . وكذلك كتاب الله المكنون ، فمنه آيات محكمات هنّ أم الكتاب ، وأُخَرُ متشابهات ، استأثر الله بعلمها ، وقضت حكمته بحجبها ، ابتلاء واختبارا ؛ « فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتّبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله . والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كلٌّ من عند ربنا ؛ وما يذّكر إلا أولو الألباب » .

قال الله تعالى : « كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ » :

جاءت هذه الآية بعد « الٓمٓصٓ » على النمط الذى أشرنا اليه ، تنويها بشأن الكتاب ، وتفخيما لقدره ، وتقريراً لإنزاله على محمد صلوات الله عليه ، لغاية سامية : هى هداية البشر ، وإخراجهم به من الظلمات الى النور : « كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور بإذن ربهم الى صراط العزيز الحميد » . وحرج الصدر : ضيقه . وينشأ من فوات مرغوب أو ترقب فواته ، ومن حصول مكروه أو توقع حصوله . وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يقدر مشقة الرسالة من جهات : من جهة الوحى الذى ينزل عليه : « إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا » ، ومن جهة إيمان قومه به ، ومقدار حرصه على ذلك ؛ ومن جهة تكذيبهم إياه ، وما يلاقى من إعنات ومشقة . كل هذه الجهات كانت مبعث حرج وضيق؛ وكان شأن الله معه — وقد تولى أمره ، وكفل له العصمة من الناس ، والإقدار على تبليغ الرسالة — أن يخفف عنه آلام ذلك الموقف ، ويتعهده الفينة بعد الفينة بالنصح والإرشاد والتسلية ، وحمل ما يلقى فى سبيله : « لا تحرّك به لسانك لتعجل به ، إن علينا جمعه وقرآنه . فإذا قرأناه فاتبع قرآنه . ثم إن علينا بيانه » ، « فلعلك باخعٌ نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا » ، « قد نعلم إنه ليَحزُنك الذى يقولون ، فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون » ، « واصبر وما صبرك إلا بالله ، ولا تحزن عليهم ، ولا تك فى ضيق مما يمكرون » .

ومن هذا القبيل قوله جلت حكمته : « فلا يكن فى صدرك حرج منه » ، أى إذا كان

الواقع الذى تعلمه من قرارة نفسك أن هذا الكتاب منزل عليك من الله، فكن عند ثقتك بنفسك، ولا تدع لتكذيبهم أثرا فى قلبك، ولا لعدم إيمانهم سلطانا على نفسك، ولا لثقل الوحى اضطرابا فى قواك، فالله قد تولاك، وبفضله رباك، « ألم نشرح لك صدرك، ووضعنا عنك وزرك، الذى أنقض ظهرك، ورفعنا لك ذكرك » . فلا يضق صدرك عن تحمل أعباء الرسالة، وعليك بالصبر وقوة الاحتمال لتقوم بوظيفتك التى اصطفاك لها الله .

« لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ » :

الإنذار : التبليغ مع التخويف . والذكرى : التبليغ مع توجيه النفس الى ما تعلم من جهات العظة والاعتبار . وقد ذكر الله فى هذه الآية الإنذار عاما، وخص الذكرى بالمؤمنين، وتلك سنة القرآن وطريقته غالبا فى الإنذار والذكرى : « لتنذر أم القرى ومن حولها »، « تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا »، « تبصرة وذكرى لكل عبد منيب »، « فإن الذكرى تنفع المؤمنين » . ولعل ذلك يرجع الى أن الإنذار كما قلنا تبليغ مقرون بالتخويف؛ والتخويف زجر وتأديب . وهذا يناسب الكافة بما فيهم من الاستعدادات المختلفة والطباع النادرة . أما الذكرى فاحتكام الى النفس المهذبة والشعور الحى، والرجوع بهما الى ما فى الكون من عظات وعبر . فهى نوع من السمو جدير بالمؤمنين الذين صفت نفوسهم، واستعدّت أرواحهم لما يتلقونه من وحى وتعليم : « إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد » .

محمود شلتوت

(يتبع)

القلوب الكبيرة

كان كعب بن زهير بن أبى سلمى الشاعر الجاهلى ممن هجا النبى صلى الله عليه وسلم، فأهدر دمه . فلما بلغه ذلك خشى عاقبة أمره بعد فتح مكة، ونصحه بعض أصحابه بأن يستسلم لرسول الله فإنه لا يحمل ضغنا لأحد، قائلا : إن هذا أنجى من كل وسيلة . فقصد اليه فى المسجد واندفع ينشده لاميته المشهورة حتى بلغ الى قوله :

نبئت أن رسول الله أوعدنى ... والعفو عند رسول الله مأمول

فألقى رسول الله صلى الله عليه وسلم بردته عليه .

السنة

سماحة الدين الاسلامى

عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «إنَّ الدين يسر،ولن يشادَّ الدين أَحدٌ إلا غلبه ، فسدِّدُوا ، وقَارِبوُا ، وأَبْشِرُوا ، واسْتَعينوا بالغَدْوةِ والرَّوحةِ وشىءٍ من الدُّلْجَة» . رواه البخارى فى كتاب الايمان .

يتعلق بشرح هذا الحديث أمور : (١) بيان معناه إجمالا . (٢) بيان سماحة الدين الاسلامى . (٣) بيان ما يترتب على مخالفة هذا الدين من المضار الدنيوية والاخروية .

(١) يتضمن هذا الحديث نهياً عن التشدد فى الدين تشددا يوجب السآمة والملل ، أو العجز عن أداء الواجبات ؛ وحثا على القصد والتوسط فى أداء التكاليف الشرعية بدون إفراط أو تفريط .

ومعنى التشدد فى الدين : التعمق فى تطبيق قواعده الحكيمة السمحة ، والإفراط فى الأعمال والأقوال الدينية إفراطا ضارا . وذلك شر وبيل تجب مجافاته والفرار منه . فواجب على المؤمنين العاملين أن يزنوا قدرتهم على الاستمرار فى أعمال الخير والبر بميزان الدين الصادق ، فلا يرهقوا أنفسهم فى عمل من الأعمال الدينية بدون حساب للقدرة على الاستمرار فى أدائه بدون انقطاع ، سواء كان ذلك العمل صلاة ، أو صياما ، أو صدقة ، أو جهادا ، أو غير ذلك من الأعمال التى لا بد منها لإصلاح الأفراد والجماعات .

ولعل قائلا يقول : إن هذا الحديث وأمثاله إنما يناسب حال المؤمنين الأولين الذين كانوا يضحون بأنفسهم وأموالهم فى سبيل الله ، ويعبدون الله تعالى آناء الليل وأطراف النهار بدون تؤدة أو هوادة ، فاحتاجوا الى تنبيه بأن دينهم يأمر بالرفق والتوسط فى كل الأمور ؛ أما الآن فنحن فى زمن قد هجر فيه كثير من الناس قواعد دينهم الأساسية ، وأخلاقه الفاضلة ، التى سعد بالاستمساك بها من كان قبلهم من المؤمنين حقا ؛ فما لهؤلاء وما للعظة التى تأمر بالتوسط فى أعمال البر وتنهى عن المبالغة فيها خوفا من السآمة والملل أو العجز عن الاستمرار فى أدائها . فترى الآن كثيرا من الناس يجاهرون بالفسوق والعصيان ، والإمعان فى الشهوات الفاسدة الضارة

بالأنفس والأموال ، على عكس أسلافهم من المؤمنين الذين كانوا يرهقون أنفسهم فى سبيل الله ومن أجل الله . ومن أهل زماننا من بلغت به القحة وحبه للشهوات الفاسدة واللذات المحرمة مبلغا جعله يباهى بالرذائل الخلقية ، ويعتبر الفضيلة جمودا وانحطاطا . ومنهم من قادته زخارف المدنية الكاذبة الى التقليد الأعمى فى المفاسد والموبقات ، ومحاربة الله ورسله ، مع أنهم كانوا أحق بأن يقلدوا فى التمسك بأسباب القوة والمنعة ، ووسائل الشرف والكرامة . فكان من نتيجة كل هذا أن مكن الله منهم أعداءهم ، وأذاقهم هوان الشهوات الفاسدة ، وكانت عاقبة أمرهم خسرا . فما لهؤلاء والموعظة التى قالها رسول الله صلى الله عليه وسلم للمؤمنين الأولين الأطهار ، الذين كانوا يبالغون فى طاعة الله ورسوله ؟ !

والجواب : أن هذا الكلام حق لا ريب فيه ، وأن الفساد الذى طرأ على الأخلاق أصبح داء عضالا ، ولكن النظر فى هذا الحديث وأمثاله فيه عظات وعبر لأولئك الذين هجروا العمل بقواعد دينهم الحكيمة . فلعل هؤلاء يخجلون من أنفسهم ومن حسبانهم فى عداد المسلمين المؤمنين حقا ، إذا علموا أن أسلافهم الأولين كانوا يجهدون أنفسهم فى أعمال البر ، ويبالغون فى طاعة ربهم مبالغة قد تضر بأنفسهم وأموالهم وأهليهم ، فاحتاجوا الى نهى عن الزيادة الضارة التى قد تكون سببا فى العجز عن العمل عاجلا أو آجلا . لعل هؤلاء الذين يحاربون الله ورسوله بالانقياد الى شهواتهم تؤثر فيهم أخلاق أسلافهم الفاضلة ، ويكفون عن الموبقات الضارة بأبدانهم وأموالهم ، ويسيرون فى أعمالهم وأقوالهم سيرة مرضية ، فيظفرون ببعض ما ظفر به أسلافهم من عز ومنعة ، وشرف وكرامة . لعل هؤلاء تؤثر فيهم الموعظة الحسنة ، ويدركون أن القدوة الصالحة تنقذهم وتنقذ أمتهم من فوضى الشهوات الضارة ، وذل المعاصى المخزى ، فيكفون عن الموبقات ، ويعملون الصالحات التى تسعدهم فى دنياهم وآخرتهم .

ومع هذا فإنه يوجد فى زماننا هذا كثير من الجهلة يرهقون أنفسهم بالقيام بالأعمال المندوبة ، من أذكار ، وأوراد ، ونحو ذلك ، فتشغلهم عن أداء الفرائض التى لا بد منها لصلاحهم وصلاح المجتمع . ومنهم من يستمسك بعادات فاسدة ، فيرهق نفسه فى سبيل إحيائها باسم الدين ، ويترك ما هو واجب عليه اكتفاء بها . فترى بعض الجهلة يتهالكون على الإنفاق فى إحياء الموالد المبتدعة التى نهى عنها الدين ، ظنا منه أنها من القرب التى يتقرب بها الى الله ، ويترك زكاة أمواله وصلة أرحامه ، وإغاثة الملهوف ، والإنفاق فى سبيل الله ، اكتفاء بما قام به من الإنفاق فى إحياء ليالى المولد وذبح الذبائح . ومن هؤلاء من يرهق نفسه ويستدين لإحياء تلك البدع الضارة أو لإحياء ليلة يرضى بها شيخ طريقة ، فيستدين للإنفاق على ما يعتقده عبادة من أذكار محرفة ، وتمايل معيب وسط أغان محظورة . كل ذلك ونحوه مما يظنه بعض الناس عبادة تغنيهم عما كلفهم الله به من مهام الأعمال الخيرية ، لا يقره الله

ورسوله ، وإنما هم فى الواقع يشقّون على أنفسهم بعمل ما سيشقون به عند الله عز وجل ؛ ولم يكلفهم الله إلا بعمل نافع لهم فى آخرتهم ودنياهم . وهناك فريق آخر يتشدد فيما لا فائدة فيه ، أو فيما عفا الشارع عنه ، كمن يضره الوضوء أو الغسل فيغتسل ، مع أن الشارع شرع له التيمم فى هذه الحالة ، أو يضره الصيام فيصوم ، مع أن الشارع نهاه عن الصيام فى هذه الحالة ، وشرع له الصيام فى أيام أخر .

أما قوله : « فسددوا » فمعناه : الزموا السداد ، وهو التوسط فى الأعمال من غير إفراط ولاتفريط . وقوله : « وقاربوا » معناه : إذا لم تستطيعوا فعل ما أمرتم به فافعلوا مايقرب منه مما هو فى طاقتكم . وقوله : « وأبشروا » أبشروا بثواب أعمالكم ، لأن الله سبحانه لا يضيع أجر العاملين ، وقد وعدهم أن يجزيهم على ما يستطيعون من العمل أحسن الجزاء ، ولن يخلف الله وعده .

أما قوله : « واستعينوا بالغدوة والروحة وشىء من الدلجة » فمعناه أنه يجدر بالعاملين أن يتوخوا فى القيام بأعمالهم أوقات النشاط ، كما يتوخى المسافر أوقات النشاط ، فيسير فى الغدوة بفتح الغين (وهى السير أول النهار) . والروحة بفتح الراء المشددة (وهى السير بعد الزوال) . والدلجة بضم الدال وفتحها وإسكان اللام (سير آخر الليل) . وهذه الأوقات هى الأوقات المناسبة للمسافرين الذين يقطعون البوادى على رواحلهم . فالعاملون ينبغى لهم أن يسلكوا سبيل المسافرين فى اختيار أوقات النشاط التى لا يملون فيها . والغرض من هذا أن يقول لهم : لا يلزم أن تصرفوا كل أوقاتكم فى الأعمال فتدرككم السآمة ويلحقكم الملل ، فتعجزوا عن مواصلة العمل ، كما لو واصل المسافر سيره فإنه ينقطع ويمل .

وقد وردت أحاديث كثيرة فى الدلالة على هذا المعنى ، منها ما رواه مسلم : « كان أحب الأعمال الى الله أدومها وإن قل » . وروى البخارى ما معناه أن بعض المسلمين نزل ضيفا على صديق له فرأى امرأته رثة ، فسألها عن سبب ذلك ، فقالت له : إن أخاك منصرف الى عبادة الله ، فلما جن الليل وناما قام صاحب المنزل للصلاة فمنعه الضيف ، ولم يزل به حتى قرب الفجر فقاما معا للعبادة ، ثم بعد ذلك نهاه عن مواصلة العبادة وقال له : إن لبدنك عليك حقا وإن لزوجك عليك حقا . فينبغى مراعاة هذه الحقوق كلها مع عبادة الله . وهذه هى قواعد الاسلام الذى جاء باليسر فى كل شأن من شئونه .

(٢) لم تكن سماحة الدين الاسلامى وسهولته مقصورة على رفع الحرج والمشقة فى العبادات والمعاملات المتعلقة بأهل هذا الدين فحسب ، بل سماحة الدين الاسلامى تتجلى فى معاملة أعدائه وخصومه بصورة لا مثيل لها فى الأديان الأخرى ، حتى مع المشركين الذين كانوا يحاربون الله ورسوله بكل ما يستطيعون من قوة وبأس ، فإنه قد اتسع صدره لهم فى إبان قوته ، مع شدة خصومتهم ، ومحاولتهم القضاء عليه بكل ما يستطيعون .

عامل الدين الاسلامى الكتابيين الذين جنحوا للسلم ورضوا بأن يدفعوا ما فرضه عليهم من ضرائب هينة ، معاملة أهله من المؤمنين فى كل شىء ، حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لهم ما لنا وعليهم ما علينا من الحقوق والواجبات المتعلقة بأمر الحياة ، وأباح لهم التمتع بعقائدهم وعباداتهم التى لا يقرها ، بدون حرج ، وكان يقتص للضعيف منهم كما يقتص للضعيف من المؤمنين بدون فرق . وكان صلى الله عليه وسلم يضرب للمسلمين الأمثال على هذه السماحة بنفسه ، فكان يعامل يهود المدينة ، ويشترى منهم ما يحتاج اليه من السلع الموجود مثلها عند المسلمين ، الى حد أنه رهن درعه عند أحدهم ، مع سلطانه الواسع على جميع نفوس مواطنيه يومئذ ليكون هو بنفسه مثلا لجميع المسلمين .

وليس أدل على شعور المسلمين نحو أهل الكتاب من قوله تعالى : « الٓمٓ غلبت الروم فى أدنى الأرض ، وهم من بعد غلَبهم سيَغلِبون ، فى بضع سنين » . وذلك أن الفرس حاربوا الرومان فى ذلك العهد فى أطراف الشام ، وهى أدنى أرض العرب ، فانهزمت الروم وهم مسيحيون ، وغلبت فارس وهى يومئذ وثنية تعبد النار . فحزن المسلمون لذلك ، وفرح المشركون وقالوا : إن هزيمة الروم الكتابيين وظهور الوثنيين عليهم فأل حسن للوثنيين . فنزلت هذه الآية الدالة على أن الروم ستظفر بالفرس . وقد تحقق ما أخبر به القرآن وغلبت الروم الفرس بعد ذلك فى المدة التى ذكرها الله فى هذه الآية .

فهذا مثل واضح يدل على ما كان فى نفوس المسلمين من المودة لأهل الكتاب الذين لم يناصبوهم العداء ، ورضوا بأن يخضعوا للنظم الاسلامية .

ولم تقتصر معاملة المسلمين لأهل الكتاب على ما ذكرنا ، بل نص القرآن الكريم على أكثر من ذلك ، فأباح للمسلمين طعام أهل الكتاب الذى لا يختلف مع نصوصه القاطعة ، كما أباح أن يتزوج الرجل من نسائهم . وإنما لم يبح للمرأة أن تتزوج كتابيا، حرصا على الولد ، لأن الشريعة الاسلامية جعلت للرجل سلطة التربية ، فلو أباح للمسلمة أن تتزوج كتابيا لترتب على ذلك أن يكون الولد غير مسلم . وبديهى أن الاسلام لا يسمح باخراج أحد منه ، مع أن قواعده تقتضى المحافظة عليه وعلى كل ما يزيد فيه . فلم يكن تحريم المرأة المسلمة على الكتابى لنقص ومهانة ، وإنما كان لسبب عمرانى لا بد له منه .

أما المشركون فإن الاسلام كغيره من الأديان الأخرى كان شديدا عليهم ، فلم يقبل منهم جزية ، لأنهم كانوا يعبدون غير الله ، وكانوا لا ينفكون عن محاربة ما يقتضيه العقل من عبادة إله واحد منزه عن كل ما لا يليق به . ومع ذلك فقد قال بعض الأئمة : إنهم إذا دفعوا الجزية يعاملون معاملة أهل الكتاب . فهذه المعاملة لا نظير لها فى الأديان الأخرى ، لأن التوراة صرحت لموسى باعدام المشركين على بكرة أبيهم ، ونصت على استرقاق بعضهم ، واعتبرتهم [illegible]ام التى لا حرمة لها .

(٣) من هـذا تعلم أن مخالفة الدين الاسلامى الذى جاء بكل الفضائل ونهى عن كل الرذائل ، شر مطلق ، وأن المسلمين الذين هجروا دينهم واستهانوا بآياته الحكيمة ، وبقواعده الصالحة لكل زمان ومكان ، قد أضاعوا أنفسهم وأضاعوا كرامتهم ، وأضاعوا استقلالهم ، وأصبحوا أذلة بعد عـزة ومنعة . فعليهم أن ينتهوا عما هم فيه من شهوات فاسدة ، وعليهم أن يذكروا أن الله أمرهم بالاقتصاد فى أموالهم ، والمحافظة على أبدانهم من الإفراط فى الشهوات ، وأمرهم بأن يعدوا لأعدائهم كل ما استطاعوا من قوة وبأس . فعليهم أن يذكروا كل هذا وأن يستمسكوا به لعلهم يفلحون ؟

عبد الرحمن الجزيرى

الحكم النوابغ

قال ابن السماك : أعقل الناس محسن خائف ، وأجهلهم مسىء آمن .

نقول : إنما يخاف المحسن العاقل أن لا يكون قد وضع الاحسان موضعه ، لأنه يعلم أنه مسئول عن نتائج أعماله ، وأما الجاهل فيسىء وهو آمن ، ظانا أن الأمور فوضى لا ضابط لها ؛ وهذا غاية الجهل بالحقائق ، ومدعاة لأن يعيش الانسان متخبطا فى أعماله .

قيل لجالينوس : متى ينبغى للانسان أن يموت ؟ فقال : إذا جهل ما يضره مما ينفعه .

وقال حكيم : اجتنب الجاهل فإنه يجنى على نفسه وهى أحب النفوس إليه .

وقال غيره : الجاهل يفسد لعدم تهديه للإصلاح مع رغبته فى الصلاح . والأحمق يفسد لأنه يتلذذ بالفساد ، ويتألم من جريان الأمور على السداد .

وقال ذو النون المصرى : من جهل قدره ، هتك ستره .

وقال شاعر :

العلم أنفس شىء أنت ذاخره ... من يدرس العلم لم تدرس مفاخره
فاجهد بنفسك فيما أنت تجهله ... فأول العلم إقبال وآخره

وقال غيره :

موت التقى حياة لا نفاد لها ... قد مات قوم وهم فى الناس أحياء

باب الأسئلة والفتاوى

الحكم الشرعي في حمل المسلم بساط الرحمة :

سأل الأستاذ محمد عبد الوهاب البرعي المحامي أمام محكمة النقض والإبرام بالمنصورة ، عن حكم الشرع الاسلامي في رجل مسلم اشترك في حمل بساط الرحمة مجاملة لبعض أصدقائه من المسيحيين ، لا يقصد بذلك إلا المجاملة فقط .

الجواب

من المقرر في الدين الاسلامي أن الشعائر الدينية المختصة بأرباب الديانات الأخرى لا يحل للمسلم أن يشترك فيها بحال مهما كان الأمر .

ومن المقرر أيضا أن قيام المسلم بشعيرة مختصة بهم لا يخرجه عن الاسلام إلا إذا صحبته عقيدة الرضا به والاطمئنان اليه .

وعلى ذلك يحرم على المسلم الاشتراك في حمل بساط الرحمة الذي يسيرون به أمام جنائزهم استمطارا للرحمة على ميتهم ، كما تدل عليه تسميته ببساط الرحمة ، ولا يحل له أن يفعله ولو على سبيل المجاملة . وكيف يحمله المسلم وقد رسم عليه الصليب ، والصليب رمز لعقيدة معينة منافية لعقيدة الاسلام ؟ !

ولكن مهما عظمت الحرمة واشتد النهي لا يخرج المسلم بحمله عن الاسلام إلا إذا رضيه واطمأن اليه . والله أعلم ؟

الاقرار الكتابي كالاقرار اللساني

وجاء الى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الاستفتاء الآتي :

ما قولكم دام فضلكم في رجل توفي بحادثة فجائية عن زوجتيه : ليلى ، وسلمى ، وبعد وفاته أبرزت زوجته ليلى كتابا تزعم أنه بخط زوجها وتوقيعه مؤرخا قبل وفاته بسنتين ؛ وهذا الكتاب يتضمن العبارة التالية « إنني طلقت زوجتي سلمى طلاقا بائنا » .

ولم تعلم الزوجة سلمى بالطلاق قبل وفاة الزوج ، ولم تطلع على كتاب الطلاق الآنف الذكر ، وكان الزوج المتوفى يراسلها فيكتب اليها بخط يده وتوقيعه ، ومن ذلك كتاب مؤرخ بتاريخ يقع بعد تاريخ كتاب الطلاق المزعوم بأربعة أشهر ، من محتوياته هذه العبارة « إنني باق وسأبقى لك الزوج المخلص الأمين كما كنت » . وهناك عبارات أخرى من هذا القبيل تدل على بقاء الزوجية .

أضف الى ذلك أن الزوج المتوفى كان يدفع لزوجته سلمى نفقة على اعتبار أنها زوجته قبل وبعد تاريخ كتاب الطلاق الذى أبرزته الزوجة الثانية .

كما أن هنالك من يشهد بأن الزوج لحين وفاته كان ينكر حدوث الطلاق لزوجته سلمى ، ولأى شخص كان يحادثه فى الموضوع .

وبناء على مامر ذكره نرجو أن تفتونا فيما يلى :

١ — ماقيمة كتاب الطلاق المزعوم إذا ثبت أنه بخط وتوقيع الزوج المتوفى ؟

٢ — هل يعتبر الكتاب الذى أبرزته الزوجة المدعى طلاقها (سلمى) ، والذى يحتوى على قوله « إننى باق وسأبقى لك الزوج المخلص الأمين كما كنت » ، هل يعتبر هذا الكتاب تجديدا للزوجية ، أو استمرارا لها على الرغم من وجود كتاب الطلاق المذكور ؟ وهل يعتبر الطلاق طلاقا رجعيا أم طلاق فار ؟ وهل تحرم الزوجة سلمى المذكورة من الإرث أم لا ؟

مشهور ضامن بركات

الجواب

متى ثبت أن الخطاب الوارد لليلى ، المتضمن أن الزوج طلق زوجته طلاقا بائنا ، صادر من الزوج بتوقيعه ، فهو إقرار كتابى منه على نفسه بطلاق زوجته سلمى طلاقا بائنا . وقد قرر فقهاء الحنفية والحنابلة أن الإقرار الكتابى كالإقرار اللسانى ، كلاهما حجة ملزمة للمقر بما أقر به ، ولا يقبل منه بعد ذلك أن يدعى أنه كان كاذباً فى إقراره ، كما لا يقبل منه رجوع عنه .

وعلى هذا تكون زوجته (سلمى) مطلقة طلاقا بائنا من حين إقراره المذكور ، وليس لها حق فى ميراثه بعد موته .

أما قوله لها فى الكتاب الذى أرسله اليها بعد : « إننى باق وسأبقى لك الزوج المخلص الأمين كما كنت » فهو لا يخرج عن كونه إنكارا للطلاق الذى أقر به ، فلا يقبل ، ولا يصح أن يعتبر قوله هذا إقرارا بتجديد العقد بعد ذلك الطلاق المقر به ، لأن لفظه ينبو عنه ، إذ يقول : إنه باق على زوجيته لها ، أى لم يصدر منه طلاق .

والطلاق الذى أقر به ليس من طلاق الفار ، لأنه صادر منه فى حال صحته ، وشرط طلاق الفار أن يصدر من الزوج وهو فى مرض الموت . والله أعلم ؟

رأى الامام مالك فى حكم إفساد المرأة على زوجها لغرض التزوج منها :

وجاء الى لجنة الفتوى بالأزهر سؤال ملخصه ما يأتى :

عمل رجل على إفساد زوجة جاره ليتزوجها حتى تم له ما أراد . فهل تحل هذه الزوجة لهذا الرجل الذى أفسدها لهذا الغرض ؟ حسنى يوسف

الجواب

إن الدين الاسلامى يحرّم السعى بالفساد بين الناس ، ويعتبره من أكبر الكبائر ، وخاصة إذا كان بين المرء وزوجه .

والذى جرى عليه العمل فى مذهب الامام مالك ، أن إفساد الرجل زوجة غيره ليتزوجها يحرّمها عليه تحريما مؤبدا ، معاملة له بنقيض قصده . وبقية المذاهب لا ترى إفساد المرأة على زوجها محرما لها على من أفسدها ، ولكنها تعتبر هذا الافساد من أفسق الفسوق وأنكر أنواع العصيان . والله أعلم ؟

الرضاع لا يثبت بشهادة امرأة واحدة

وجاء الى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الاستفتاء الآتى :

أنا أريد أن أتزوج ابنة عمى ، ولكن عمى والد الفتاة كان متزوجا بخالتى وطلقها وتزوج بغيرها ، والفتاة التى أريد أن أتزوجها ابنته من غير خالتى ، وخالتى تقول إنها أرضعتنى لما كانت زوجة لعمى وتقول : إن فترة الرضاع استغرقت نحو خمسة عشر يوما كانت ترضعنى فى غالب أيامها ، ولما سألتها هل تجزم بأنها أرضعتنى أكثر من أربع رضعات ، قالت إنها لا تتذكر العدد إن كان أربعا أو أكثر أو أقل ، وأصرت على تلك الأقوال ، ولا يوجد من يؤيد أو ينفى أقوالها غيرها . وأنا أميل لتصديقها ، غير أنها ربما تضمر الشر لوالد الفتاة مطلقها ، ومن جهة أخرى فانها كانت قليلة اللبن ويحصل تشقق بثديها عقب كل وضع .

فهل يجوز العقد على الفتاة ؟ وإن كان بعض المذاهب يحرّم العقد بهذه الصورة ، فهل يوجد من المذاهب ما يبيح العقد ؟

عبد الفتاح اسماعيل

الجواب

يرى علماء المذاهب الثلاثة : الحنفية ، والشافعية ، والمالكية ، أن الرضاع لا يثبت بشهادة امرأة واحدة . ولما كان واضحا من السؤال أن الرضاع المستفتى عنه لم يشهد به إلا امرأة واحدة هى المرضعة ، لا يكون حراما على السائل أن يتزوج بابنة عمه التى يريد أن يتزوج بها . والله أعلم ؟

رئيس لجنة الفتوى

محمد عبد اللطيف الفحام

حظ الامم من الرسل

هل أرسل الى أمريكا والاقيانوسية وأطراف العالم القديم رسل ؟

كتب إلينا غير واحد من الفضلاء يسألوننا ، من ناحية اجتماعية بحت ، عن حظ الأمم من الرسل ؛ وآخر سؤال وصل إلينا من هذا القبيل ما وجهه إلينا طالب نجيب قال فيه :

« كل ما قرأناه عن الرسل محصور فى الذين أرسلوا الى الأمم القائمة فيما بين الفرات والرين ، وفيما بين بحر قزوين والنيل ، فلماذا لم يرسل الله تعالى رسلا الى أمريكا ، وإلى أطراف قارات العالم القديم كجنوب أفريقيا وشمال أوروبا ، وشرق الروسيا ؟

« نظن أنكم ستقولون إن هذه البقاع هى التى ازدهرت فيها الحضارة ، وعمرت بالخلائق ، فانتشروا منها فى كل بقعة حاملين معهم الموسوية والعيسوية اليها ؛ ولكن كيف نعد هذا الجواب شافيا والحفريات تثبت أن الانسانية وجدت قبل هذين الدينين بآلاف السنين ؟

« ثم ماذا تقولون فى الأمم التى لا تزال تعيش فى سهوب الأرض ووديانها القصية ، فهل أرسل اليها رسل ، وإذا كان لم يُرسَل فلماذا ، ومتى ؟ » انتهى .

***

نجيب حضرات الذين تشغلهم هذه المسألة بقولنا :

« إذا رئى توجيه هذا السؤال الى دين قائم ، فلا محل لتوجيهه الى الاسلام ، لأن فى كتابه الجواب الشافى عليه ؛ قال الله تعالى : « إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا ، وإنْ من أُمّة إلا خلا فيها نذير » وإن هنا بمعنى ما ؛ والمعنى : وما من أمة إلا خلا فيها نذير . وقال تعالى : « ولقد أرسلنا رسلا من قبلك ، منهم من قَصَصنا عليك ، ومنهم من لم نَقْصُصْ عليك » .

وهذا كلام صريح فيما نحن بصدده ، مؤداه أن الله لم يحرم أمة من نصيبها فى هداية الرسل ، فأرسل اليهم رسله تترى ليعلّموهم ما يجب عليهم أن يعلموه ويعملوه ، ولكنه لم يقص سِيَرهم أجمعين ؛ والحكمة فى هذا الأمر ظاهرة أجلى ظهور ، فان عدد الرسل الذين أرسلوا من لدن وجود الانسان على الأرض يجب أن يكون من الكثرة بحيث لا تسع أسماءهم وحدها عدة أسفار . وقد جاء الكلام عنهم إجمالا فى آيات كثيرة ؛ قال الله تعالى : « ثم أرسلنا رسلنا تَتْرَى (أى تتوالى) كُلّما جاء أمةً رسولها كذّبوه ، فأتبعنا بعضهم بعضا ، وجعلناهم أحاديث ، فبُعداً لقوم لا يؤمنون » . ومعنى هذا أنهم كذبوا رسل الله واتبعوا أهواءهم ؛ وهذا هو الذى حدث ؛ فان جميع الأساطير المنقولة عن الأمم تدل على أن تلك الجماعات عولوا فى بنائها على أوهامهم ، فلا يأخذنّ باحث من ذلك أنهم حُرموا حظهم من الرسل فضلوا هذا الضلال البعيد .

أما سبب اقتصار القرآن الكريم على ذكر الرسل المعروفين لأتباع الدينين اللذين سبقاه ، فلأن فى ذكر غيرهم إطالة لا محل لها ، يغنى عنها الإجمال الذى أتى به فى هذا الموضوع ، وهو من معجزات القرآن ، فقد علم سبحانه وتعالى أنه سيأتى زمان تتصل فيه الأمم اتصالا وثيقا بما يكتشف من وسائل الانتقال ، فيتساءل الناس : ألم يرسل الله رسلا الى الأمم التى لم يكن بيننا وبينها اتصال ؟ ولِمَ حُرموا ذلك ؟ وربما تولدت من هذه المسألة شبهة على القرآن وفيه قوله تعالى : « ما فرّطنا فى الكتاب من شىء » ، فالإلمام بهذه المسألة فى الكتاب على هذا النحو الشافى الموجز يعتبر آية توجب الدهش لدى علماء الاجتماع ، الذين يعرفون أن الأمم على عهد نزول القرآن كانوا يتخيلون أن العالم ينتهى عند الحدود التى وصلوا اليها ، وأن ما عداهم من الجماعات فهمج رعاع لا يُعنَى بهم الله إلا بقدر ما يعنى بالحيوانات .

ومما يزيد فى عظم شأن هذه الآية ، أن الكتاب الشريف بعد أن ألمّ بذكر الأمم ، قرر أن الله كان يبعث بالرسل إليهم فكانوا لا يرفعون بهدايتهم رأسا ، وكانوا منهم يسخرون ، فقال تعالى : « وكم أرسلنا من نبى فى الأولين . وما يأتيهم من نبى إلا كانوا به يستهزئون » : وقال تعالى : « وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير ، إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون . قال أَوَلو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم ؟ قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون » ، وقال تعالى : « يا حسرةً على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون » . فهذه الآيات ، ومثلها كثير فى القرآن الكريم ، تدفع شبهة لم تكن قد وجدت الى العهد الذى كان ينزل فيه القرآن ، وهى قولهم إن أديان الجماعات الانسانية فى جميع أدوار التاريخ لم تكن إلا مجموعات من أضاليل ، فلو كانوا حظوا برسل يهدونهم لكانوا أحسن مذاهب مما هم عليه الآن ، فكان فى تأكيد الكتاب أن الله ساوى بينهم وبين سواهم فى الإرسال إليهم ، ولكنهم آثروا أن يحافظوا على أساطيرهم ، وأن ينبذوا ما أتاهم من الوحى ظهريا ، دافع حاسم لهذه الشبهة ، ولا تزال أحوالهم تشهد بصحة هذا الدفع ، فإن جميع الشعوب التى احتك بها الأوربيون فى فتوحاتهم الأمريكية والأقيانوسية والإفريقية ، لا تزال محافظة على أوهامها رغما عما جاءوهم به من التعاليم النصرانية ؛ وليس يخفى أنهم حاولوا تنصيرهم على أساليب شتى ، فلم يصلوا الى ما أرادوا بعد صرفهم قناطير مقنطرة من الأموال فى هذه السبيل . فلا يصح أن يقال بعد هذا إن الله لم يرسل إليهم رسلا .

يتضح من هذا البيان أن السؤال الذى وجهه إلينا بعض الفضلاء فى هذا الشأن ، أجاب عنه القرآن بما لا يدع شيئا فى نفس مرتاب ، وعلى وجه يتفق ومقررات العلم من كل وجه ؟

محمد فريد وجدى

حياة رجالات الإسلام

عبد الله بن مسعود

شيخ العبادلة ، وفقيه المهاجرين الأولين ، وحبر العراقيين ، وإمام المدرسة التشريعية فى الكوفة ، وسادس ستة كانوا أسبق أهل الأرض الى الهداية والخير ، والاستجابة الى كلمة الحق ودعوة اليقين ، وأول من جهر بالقرآن الكريم بمكة ، فصك بقوارعه عنجهية الشرك وطغيان الجبروت ، وصاحب الهجرتين ، والغلام المُعلَّم ، كالقبه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أول الاسلام ، وجندى بدر الكبرى ، وشاهد مواقع الاسلام بعدها ، وأخو الزبير ابن العوام حوارى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما قبل الهجرة ، وأخو سعد بن معاذ أحد سادات الأنصار فيما بعدها ، ومبعوث الفاروق الى أهل القادسية أستاذاً ومعلما .

ذلكم هو عبد الله بن مسعود ، صاحب سر رسول الله صلى الله عليه وسلم ومطهرته ، وحامل نعليه ، يرى منه ما لا يرى جميع الناس ، ويدخل عليه حين يحجب عامة الخلق وخاصتهم فيسمع ما لم يسمعوا ، ويشهد ما لم يشهدوا ، حتى كان أعلم الناس بأحوال النبى صلى الله عليه وسلم ، فى مدخله ومخرجه ، وسفره وحضره ، ونومه ويقظته .

قال العلامة العينى فى شرح البخارى : « وكان النبى صلى الله عليه وسلم خصص ابن مسعود بنفسه اختصاصاً شديداً : كان لا يحجبه رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا جاء ، ولا يخفى عنه سره ، وكان يلج عليه ، ويلبسه نعليه ، ويستره إذا اغتسل ، ويوقظه إذا نام ؛ وكان يعرف فى الصحابة بصاحب السواد والسواك ، وكان يقول له النبى صلى الله عليه وسلم : « أذنتك على أن ترفع الحجاب وتسمع سوادى حتى أنهاك » .

وروى البخارى عن أبى موسى الأشعرى أنه قال : « قدمت أنا وأخى من اليمن فكثنا حينا ما نُرى إلا أن عبد الله بن مسعود رجل من أهل بيت النبى صلى الله عليه وسلم ، لما نرى من دخوله ودخول أمه على النبى صلى الله عليه وسلم » .

وروى الترمذى عن حذيفة « أن ناسا قالوا له : حدثنا بأقرب الناس من رسول الله صلى الله عليه وسلم هديا ودلاً ، نلقاه فنأخذ عنه ونسمع منه ، قال : كان أقرب الناس هديا ودلا وسمتا برسول الله صلى الله عليه وسلم ابن مسعود ، لقد علم المحفوظون من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أن ابن أم عبد من أقربهم الى الله زلفى » .

وقد كان لهذه الخصيصة أثر ظاهر فى حياة عبد الله بن مسعود العلمية ، جعلت منه أحد أولئك الغر البهاليل الذين حملوا لواء التشريع الاسلامى فى أطراف الأرض ، وخلفوا للانسانية تراثا فكريا خالدا يعدها بما تشاء من قوانين فاضلة ، وسياسة عادلة ، فى أى زمان أو مكان . وقد كان عبد الله بن مسعود فى هذا ملاذاً يرجع اليه أكابر الصحابة فى الفتيا والفقه وأصول الدين ؛ روى ابن سعد فى الطبقات « أن نفرا من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم كانوا فى دار أبى موسى الأشعرى يعرضون مصحفا ، فقام عبد الله بن مسعود فخرج ، فقال أبو مسعود : هذا أعلم من بقى بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم ، فقال أبو موسى : إن يكن كذلك فقد كان يؤذن له إذا حجبنا ، ويشهد إذا غبنا » .

وكان أبو موسى يسمى ابن مسعود « الحبر » ، فقد جاء فى الطبقات عن أبى عطية الهمدانى قال : « كنت جالسا عند عبد الله بن مسعود فأتاه رجل فسأل عن مسألة ، فقال : هل سألت عنها أحدا غيرى ؟ قال : نعم ، سألت أبا موسى ، وأخبره بقوله ، فخالفه عبد الله ، ثم قام فقال : لا تسألونى عن شىء وهذا الحبر بين أظهركم » . وكان عمر بن الخطاب إذا ذكر عبد الله بن مسعود يقول : « كُنَيْف ملئ علماً آثرت به أهل القادسية » . ولما سيّره عمر الى الكوفة معلما وبعث عمارا أميرا ، قال : إنهما من النجباء من أصحاب محمد فاقتدوا بهما . وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه : « لو كنت مؤمِّراً أحدا بغير مشورة لأمرت ابن أم عبد » . وفى صحيح البخارى عن مسروق قال : ذكر عبد الله (بن مسعود) عند عبد الله بن عمرو فقال : ذاك رجل لا أزال أحبه بعد ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « استقرءوا القرآن من أربعة : من عبد الله بن مسعود ، فبدأ به » .

وقال مسروق بن الأجدع : « لقد جالست أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فوجدتهم كالإخاذ (مجتمع الماء) فالإخاذ يروى الرجل ، والإخاذ يروى الرجلين ، والإخاذ يروى العشرة ، والإخاذ يروى المائة ، والإخاذ لو نزل به أهل الأرض لأصدرهم ، فوجدت عبد الله بن مسعود من ذلك الإخاذ » . وفى الحديث الصحيح عن على رضى الله عنه « لَرِجل عبد الله أثقل فى الميزان من أُحد » . ويقول بعض التابعين : « جالست أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فما رأيت أحدا أزهد فى الدنيا ولا أرغب فى الآخرة ولا أحب الىّ أن أكون فى صلاحه من ابن مسعود » . وكان عمر بن الخطاب يعظم ابن مسعود تعظيما كبيرا ، فقد روى أن عبد الله بن مسعود رأى رجلا قد أسبل إزاره ، فقال له : ارفع إزارك ، فقال الرجل : وأنت يا بن مسعود فارفع إزارك ، فقال : إنى لست مثلك ، إن بساق حُموشة وأنا آدم الناس ، فبلغ ذلك عمر ، فضرب الرجل وقال له : أترد على ابن مسعود ؟!

وكان ابن مسعود على ضئولة جسمه يحمل بين جنبيه قلبا جريئا تمثلت فيه شجاعة الأبطال ،

وقد سجل له تاريخ الاسلام فى صحائفه مواقف عظيمة ؛ فقد روى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال يوما لأصحابه : « إنى أمرت أن أقرأ على الجن الليلة ، فمن يتبعنى » ؟ قالها ثلاثا ؛ فأطرقوا إلا عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ، قال : « لم يحضر ليلة الجن أحد غيرى فانطلقنا حتى إذا كنا بأعلى مكة فى شِعب الحجون ، فخط لى خطا ، وقال : لا تخرج منه حتى أعود إليك ، ثم افتتح القرآن وسمعت لغطا شديدا حتى خفت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وغشيته أسودة كثيرة حالت بينى وبينه حتى ما أسمع صوته ، ثم انقطعوا كقطع السحاب ، فقال لى رسول الله : هل رأيت شيئا ؟ قلت : نعم : رجالا سودا مستثفرى ثياب بيض ، فقال : أولئك جن نصيبين » .

وذكر أصحاب السير أن النبى صلى الله عليه وسلم لما فرغ من غزوة بدر أمر بأبى جهل أن يلتمس فى القتلى ، وقال : « اللهم لا يعجزَنَّك» ، وكان قد عقره معاذ بن عمرو بن الجموح ، فمر به وهو عقير معوّذ بن عفراء ، فضربه حتى أثبته ، ثم تركه وبه رمق ، فمر عبد الله بن مسعود بأبى جهل حين سمع أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يلتمس فى القتلى ، وقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : « انظروا إن خفى عليكم الى أثر جرح بركبته ، فانى ازدحمت أنا وهو يوما على مأدبة لعبد الله بن جدعان ونحن غلامان ، وكنت أشف منه بيسير ، فدفعته فوقع على ركبتيه فخدش فى إحداها خدشا لم يزل أثره فيها بعد » . فقال عبد الله بن مسعود : فوجدته بآخر رمق فعرفته ، فوضعت رجلى على عنقه — وقد كان ضبث بى مرة بمكة فآذانى ولكزنى ، ثم قلت : هل أخزاك الله يا عدو الله ؟! قال : وبماذا أخزانى ؟ أعمد من رجل قتلتموه ؟! لمن الدبرة اليوم ؟ قلت : لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، وكان ابن مسعود يقول كما فى بعض الروايات : إن أبا جهل قال لى لما وضعت رجلى على عنقه : لقد ارتقيت مرتقى صعبا يا رويعى الغنم . ثم احتززت رأسه وجئت به الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت : يا رسول الله ، هذا رأس عدو الله أبى جهل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : آلله الذى لا إله غيره ؟ — وكانت يمين رسول الله صلى الله عليه وسلم — قلت : نعم والله الذى لا إله غيره ، ثم ألقيت رأسه بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فحمد الله !

وكان عبد الله بن مسعود من فصحاء الصحابة وخطبائهم الأبيناء ، وله أسلوب فى خطابته يشبه أسلوب أكثم بن صيفى حكيم العرب ، غير أن أكثم بن صيفى ينزع عن حكمة التجارب ووحى الفكر الصادق ، أما عبد الله بن مسعود فانه يمتح من منبع الدين ووحى الروح . وقد روى ابن عبد ربه فى كتابه (العقد) خطبة لعبد الله بن مسعود تؤيد ما ذهبنا اليه فى أسلوبه الخطابى ، قال : « أصدق الحديث كتاب الله ، وأوثق العرى كلمة التوحيد . التقوى خير زاد . أكرم الملل ملة ابراهيم صلى الله عليه وسلم . خير السنن سنة محمد صلى الله عليه وسلم .

شر الأمور محدثاتها . خير الأمور عزائمها . ما قل وكفى خير مما كثر وألهى . لنفس يحميها خير من إمارة لا يحصيها . خير الغنى غنى النفس . خير ما ألقى فى القلب اليقين . الخمر جماع الآثام ، النساء حبائل الشيطان . الشباب شعبة من الجنون . حب الكفاية مفتاح المعجزة . شر من الناس من لا يأتى الجماعة إلا دبرا ، ولا يذكر الله إلا هجرا . سباب المؤمن فسوق ، وقتاله كفر ، وأكل لحمه معصية . من يتألى على الله يكذبه ، ومن يغفر يغفر له . مكتوب فى ديوان المحسنين : من عفا عفى عنه . الشقى من شقى فى بطن أمه . السعيد من وعظ بغيره . الأمور بعواقبها . ملاك الأمر خواتمه ، أحسن الهدى هدى الانبياء . أقبح الضلالة الضلالة بعد الهدى . أشرف الموت الشهادة . من يعرف البلاء يصبر عليه ، ومن لا يعرف البلاء ينكره » .

وإذا وازنا بين هذه الخطبة وخطبة أكثم بن صيفى بين يدى كسرى ، ظهر لنا جليا مكان المشابهة بين الأسلوبين ، ومنزع كل من الخطيبين . يقول أكثم : « إن أفضل الأشياء اعاليها ، وأعلى الرجال ملوكها ، وأفضل الملوك أعمها نفعا ، وخير الأزمنة أخصبها ، وأفضل الخطباء أصدقها . الصدق منجاة ، والكذب مهواة ، والشر لجاجة ، والحزم مركب صعب ، والعجز مركب وطىء . آفة الرأى الهوى ، والعجز مفتاح الفقر ، وخير الأمور الصبر ، وحسن الظن ورطة ، وسوء الظن عصمة . إصلاح فساد الرعية خير من إصلاح فساد الراعى . من فسدت بطانته كان كالغاص بالماء . شر البلاد بلاد لا أمير بها ، شر الملوك من خافه البرىء . أحق الجنود بالنصر من حسنت سريرته . يكفيك من الزاد مابلغك المحل . حسبك من شر سماعه . البلاغة الإيجاز . من شدد نفر ، ومن تراخى تألف » .

ولولا اختلاف المنزع وظهور أثر البيئة فى الكلامين ، لصح لزاعم أن يزعم أنهما صدرا من نفس واحدة ؟

صادق ابراهيم عرجون

أحسن الانتقام

قيل لفيلسوف : بم ينتقم الانسان من حاسده ؟ قال : بأن يزداد فضلا فى نفسه .

حقا إن هذا من أشد ضروب الانتقام من الحساد ، وهل ألهب فى قلوبهم نيران الأحقاد إلا ما آنسوه فى المحسود من إقبال الناس عليه ومحبتهم له ، والتحدث بفضائله وفواضله ؟ فاذا أراد أن ينتقم ممن يحسده على ذلك فهل فى وسعه أفضل من أن يزداد تكملا فى نفسه ، ليحصل من حب الناس وتقديرهم أكثر مما له عندهم ؟ ولقد قيل :

ما ضرنى حسد اللئيم ولم يزل ذو الفضل يحسده ذوو التقصير

أبو يوسف يعقوب بن اسحاق الكندى

حياته وفلسفته

أصله ونشأته :

هو أبو يوسف يعقوب بن اسحاق بن الصباح بن عمران بن اسماعيل بن محمد بن الأشعث ابن قيس .

وأول من أسلم من آباء الكندى الأشعث بن قيس (انظر طبقات الأمم للقاضى صاعد ص ٥٢) .

وجاء فى كتاب تاريخ بغداد ج ١ ص ١٩٦ ، ١٩٧ : قال ابن الأثير الجزرى : وفد الى رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة عشر من الهجرة فى وفد كندة ، وكانوا ستين راكبا فأسلموا ، وكان الأشعث ممن ارتد بعد وفاة النبى ، فسيّر أبو بكر الجنود الى اليمن فأخذوا الأشعث أسيرا ، فأحضر بين يديه ، فقال له : استبقنى لحربك ، وزوجنى بأختك . فأطلقه أبو بكر وزوّجه بأخته ، وهى أم محمد بن الأشعث .

سكن الكوفة وابتنى بها دارا ، وشهد صفين مع على رضى الله عنه ، وكان ممن ألزم عليا بالتحكيم ، وشهد الحكمين بدومة الجندل ، وكان عثمان رضى الله عنه استعمله على أذربيجان ، وكان الحسن بن على تزوج بنته . وتوفى سنة اثنتين وأربعين ، وقيل سنة أربعين .

وأما محمد بن الأشعث ، فقيل : إنه ولد على عهد رسول الله ، واستعمله ابن الزبير على الموصل (أسد الغابة ج ٤ ص ٣١١ ، ٣١٢) . وذكر الزبير بن بكار فى تسمية أولاد على : أن مصعب ابن الزبير لما غزا المختار بعث على مقدمته محمد بن الأشعث وعبيد الله بن على بن أبى طالب فقتلا ، وكان ذلك سنة سبع وستين .

ولمحمد بن الأشعث ولد يسمى عبد الرحمن ، فخرج على الحجاج واستولى على خراسان ، ثم سار الى جهة الحجاج وغلب على الكوفة ، وقويت شوكته . ثم أمدّ عبد الملك الحجاج بالجيوش فانهزم عبد الرحمن ولحق بملك الترك ، وأرسل الحجاج يطلبه وتهدد ملك الترك بالغزو إن أخره ، فقبض ملك الترك على عبد الرحمن وأربعين من أصحابه وبعث بهم الى الحجاج ، فلما نزل فى مكان فى الطريق ألقى عبد الرحمن نفسه من سطح فمات ، وذلك فى سنة خمس وثمانين .

جاء فى مجلة كلية الآداب عدد ديسمبر سنة ١٩٣٣ فى بحث قيم عن الكندى للأستاذ مصطفى عبد الرازق بك قال فيه :

يظهر أن هذا الحادث جنى على منزلة بيت الأشعث بن قيس عند آل مروان ، فخفت ذكرهم في التاريخ حوالى جيلين . من أجل ذلك سكت التاريخ عن اسماعيل بن محمد بن الأشعث أخى عبد الرحمن ، وعن ابنه عمران ، وهما جدان من جدود يعقوب بن إسحاق الكندى . بل قد سكت التاريخ عن شأن الصباح ، اللهم إلا ما جاء فى كتاب أخبار الحكماء نقلا عن ابن جلجل الأندلسى ، وكما جاء أيضا فى كتاب عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ، أن يعقوب بن إسحاق الكندى شريف الأصل كان جده ولى الولايات لبنى هاشم .

وإذا كانت صلة بنى الأشعث بن قيس بالخلفاء من بنى مروان قد انقطعت منذ خروج عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث على الحجاج وعبد الملك بن مروان ، فإن بيت الكندى ظل فى الكوفة من بيوتات المجد والحسب الرفيع . ولما تولى الخلافة العباسيون عاد بيت الكندى الى الظهور فى ميدان السياسة والحكم ، فتولى إسحاق بن الصباح الكوفة فى أيام المهدى والرشيد .

والغالب أن الكندى ولد فى مطلع القرن التاسع الميلادى حوالى سنة ٨٠١ م سنة ١٨٥ هـ ، كما رجحه «دى بور» (فى دائرة المعارف الاسلامية) . أما تاريخ وفاته فلم يعرض لذكره أحد ممن ترجموا له من الأقدمين . وقد حاول المحدثون أن يحددوا ذلك التاريخ من سبيل الاستنباط ، فنهم من جعل موته سنة ٢٤٦ هـ سنة ٨٦٠ م ، كالأستاذ « مسنيون » فى نصوصه الصوفية ؛ ومنهم من جعله نحو سنة ٢٦٠ هـ سنة ٨٧٣ م ، كالأستاذ « نللينو » فى محاضراته فى الفلك ، وتاريخه عند العرب فى القرون الوسطى .

والمرجح أن الكندى ولد فى أعقاب عمر أبيه ، وأن أباه تركه طفلا ، فنشأ فى الكوفة مع أمه فى تراث من السؤدد والغنى ، وفى حضن اليتم ، فدبرت له الأم المال ، ونشأته مقتصدا مرفها غنيا ، ثم ساقته فى سبيل العلم لما أنست من ذكائه وقوة عارضته ، فتعلم علوم اللغة والأدب ، ونهل من علوم الدين شيئاً ، ولكن الطفل كان بفطرته القوية يريد أن يحيط بكل شىء علماً ، فاقتحم أبواب الفلسفة وما اليها من العلوم المنقولة عن القدماء من الفرس واليونان والهند .

ويظهر أن الكندى كان عالماً بالسريانية ، وكان ينقل الكتب منها الى العربية . فقد جاء فى كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء : ومما اشتهر من كتب بطليموس، وخرج الى العربية « كتاب الجغرافيا فى المعمور من الارض » . وهذا الكتاب نقله الكندى الى العربية نقلا جيدا ، ويوجد سريانيا . وفى كتاب طبقات الأطباء نقلا عن أبى معشر : حذاق الترجمة فى الاسلام أربعة : يعقوب بن إسحاق الكندى ، وثابت بن قوة الحرانى ، وعمر بن الفرخان الطبرى ، وحنين بن إسحاق . ومترجمو الكندى يكادون يتفقون على أنه كان كثير الاطلاع .

وفى مواضع متفرقة من كتاب الفهرست ما يدل على أن الكندى كان محيطا بمذاهب

الصابئة ومذاهب الثنوية الكلدانيين . وفى كتاب طبقات الأطباء ج ١ ص ٢٠٧ : أن الكندى كان عظيم المنزلة عند المأمون والمعتصم ، وأنه كان مؤدباً لأحمد بن المعتصم .

ومما يدل على ممارسة الكندى للأدب ما نقلوه عنه من نقد الشعر ، وفى الجدل وأسرار البلاغة العربية ، حتى ذكروا أن له كتابا فى صنعة البلاغة .

وأسلوب الكندى فى الترجمة لما يدرس بعد ، كما أشار الى ذلك الأستاذ مسنيون فى كتابه مجموع نصوص لم تنشر متعلقة بتاريخ التصوف فى بلاد الاسلام ، ص ١٧٥

ولما كان أكثر ما كتب الكندى قد عبثت به يد الضياع ، إلا بقايا توجد فى ترجمات لاتينية ، مثل رسالته فى العقل ، فان على الباحث فى أسلوب الكندى أن يكتفى بالنزر القليل الذى وصل الينا من مؤلفاته بالعربية كرسالته فى كمية ملك العرب ، أو ما وصلنا من التراجم التى أصلحها الكندى ، مثل كتاب (أثولوجيا) الذى نقله عبد المسيح بن عبد الله بن ناعمة الحمصى وأصلحه لأحمد بن المعتصم بالله « أبو يوسف يعقوب بن اسحاق الكندى » .

والذى يلاحظ فى اسلوب الكندى اعتمادا على هذه المصادر : أن فيه غموضا يأتى بعضه من أن الألفاظ الاصطلاحية الفلسفية لم تكن استقرت فى نصابها وتحددت معانيها (مجلة كلية الآداب ديسمبر سنة ١٩٣٣) . بعد أن ترك الكندى الاشتغال بفنون الأدب وعلوم الكلام انصرف الى الحكمة فنبغ فى علومها ، وصار كما يقول « مسنيون » إمام أول مذهب فلسفى إسلامى فى بغداد ، واليه يرجع الفضل فى تحرير جملة من التراجم العربية لمصنفات يونانية فى الفلسفة . ونسب اليه المترجمون من الكتب فى الموضوعات المختلفة سبعة عشر نوعا .

ويقول ظهير الدين البيهقى فى كتابه تاريخ الحكماء ص ١٨ : جمع الكندى فى بعض تصانيفه بين أصول الشرع وأصول المعقولات .

ويقول « ده بوير » عند ترجمته للكندى : إن كوردان (Gurdan) وهو فيلسوف من فلاسفة النهضة (La Renaissance) يعد الكندى واحدا من اثنى عشر هم أنفذ الناس عقلا ، وأنه كان فى القرون الوسطى يعتبر واحدا من ثمانية هم أئمة العلوم الفلكية . ويقول ده بوير أيضا : إن الكندى كان مولعا بتطبيق الرياضيات لا فى العلم الطبيعى وحده ، ولكن فى الطب أيضا . فهو مثلا يفسر عمل الأدوية المركبة بالتناسب الهندسى الحادث من مزاج صفاتها الحسية : أى الحرارة ، والبرودة ، واليبوسة ، والرطوبة .

ولقد دفع الولع بالكندى فى الرياضيات الى أن كان يجعل من اللحون الموسيقية طبا لبعض الأمراض . وعلم الموسيقى كان يومئذ معتبرا فرعا من الفروع الرياضية ؛ وكان الكندى عالما بالموسيقى وبالطب ، وله فيهما مؤلفات ، كما سبق أن أوضحناه .

عنى الكندى بالكيمياء ، وأبطل دعوى الذين يدعون صنعة الذهب والفضة ، وترجم

الكندي رسالة : «إبطال دعوى المدعين صنعة الذهب والفضة من غير معادنها» . وقد نقض هذه الرسالة على الكندي «أبو بكر محمد بن زكريا الرازي»

وللكندي دراية تامة بالجغرافيا ، إلا أن كتبه في هذا العلم ضاعت فيما ضاع من كتبه ، وكانت مرجعا لمن جاء بعده من المؤلفين . ونجد في كتب المسعودي نماذج منها .

الكندي والفلسفة :

الكندي يقول عن الفلسفة فيما روى عنه ابن نباته المصري :

علوم الفلسفة ثلاثة : (فأولها) العلم الرياضي في التعليم، وهو أوسطها في الطبع. و(الثاني) علم الطبيعيات ، وهو أسفلها في الطبع . و (الثالث) علم الربوبية ، وهو أعلاها في الطبع .

وللكندي الفضل الأول في توجيه الفلسفة الاسلامية وجهة الجمع بين أفلاطون وأرسطو ، وهو الذي وجهها في سبيل التوفيق بين الفلسفة والدين .

ويجدر بنا في هذا المقام أن نقف على التيارات المختلفة لهذا التوفيق الفلسفي .

موقف الكندي من علم الكلام :

تمثل الكندي كل ما كان في عصره من علم . وآراؤه في المسائل الكلامية فيها نزعة المعتزلة . ويذكر القفطي وابن أبي أصيبعة للكندي كتابا في أن أفعال البارى كلها عدل لا جور فيها . ويذكر أن له كتبا في التوحيد والعدل ، والتوحيد أكبر أصلين من أصول المعتزلة .

وله كتاب في إثبات النبوة على سبيل أصحاب المنطق ، وكان يحاول في نظرية النبوة التوفيق بينها وبين العقل . وقد عارض الكندي في رأيه في كتابه هذا نظرية كانت تنسب الى البراهمة أساسها أن العقل وحده يكفي مصدرا للمعارف البشرية .

موقفه من الرياضيات :

للكندي رسالة في أنه لا تنال الفلسفة إلا بعلم الرياضة ؛ وفلسفته في هذا الباب مزيج من الأفلاطونية الحديثة ، والفيثاغورية الجديدة .

موقفه من الله والعالم والنفس :

كان الكندي يذهب الى أن العالم مخلوق لله ، وفعل الله في العالم إنما هو بوسائط كثيرة ، فالأعلى يؤثر فيما دونه ؛ أما المعلول فلا يؤثر في العلة لأنها أرقى منه في مرتبة الوجود ، وكل ما يقع في الكون يرتبط بعضه ببعض ارتباط علة بمعلول ؛ ونستطيع من معرفة العلل التنبؤ بالمستقبل . ويذهب الكندي الى أن نفس الانسان جوهر بسيط غير فانٍ هبط من عالم العقل الى عالم الحس (وفي المكتبة التيمورية بدار الكتب رسالة للكندي في النفس رقم ٥٥

موقفه من نظرية العقل :

يذهب الـكندى إلى أن معارفنا إما أن تكون حسية ، وإما أن تكون عقلية ، والحواس تدرك الجزئى أو الصورة المادية ، على حين أن العقل يدرك الـكلى ، ويدرك الجنس والنوع ، أى الصورة العقلية .

هذه النظرية التى استحدثها الفيلسوف الـكندى أخذت مكانا كبيرا عند فلاسفة المسلمين. (انظر رسالة فى معنى العقل عند الأقدمين للـكندى) ترجمها من اللاتينية الى العربية الأستاذ يوسف كرم المدرس بكلية الآداب

ويرجع الفضل فى تكوين ثقافة الـكندى الفلسفية الى أخذه بتعاليم أفلاطون وارسطو،حتى إنه قيل إنه لم يكن فى الاسلام فيلسوف احتذى فى تآليفه حذو أرسطاليس غير الـكندى .

شخصية الـكندى من وراء كتبه ونظرياته :

كان الـكندى هادئا فى حياته ، آخذا بأسباب الاقتصاد والنظام ، وسياسة النفس، ومجاهدة شهواتها . ومن حكمه المأثورة :

« اعص الهوى وأطع ما شئت » « لا تنجو مما تكرهه حتى تمتنع عن كثير مما تحب وتريد ».

والـكندى كان يستوحى فكره ، ويستلهم ذكاءه الحاد ،وما تنطوى عليه نفسه الـكبيرة من صفات فتتحكم فى اتجاهه العقلى . فـكان من نتيجة ذلك هذه الصور الذهنية الفلسفية المختلفة التى أخرجت للعالم نظاما فلسفيا قائما لا يزال محترما بين العلماء الى اليوم ، إلا أنه يكاد يستحيل على الباحث فى المذاهب الفلسفية للـكندى أن يرجعها الى أصل واحـد ، أو أصول معينة فلسفية ؛ لأن هذا الرجل الغامض ، والذى يعد بحق أكبر فلاسفة العرب ، قد أخذ من كل أصل بطرف ، بل غذى مذهبه بمذاهب تشعبت طرقها ، واختلفت وتناقضت كل التناقض ، فلم يترك خيطا من خيوط التفكير الفلسفى إلا نسجه فى مذهبه . فقد جمع الـكندى فى فلسفته أصولا ترجع لفلاسفة اليونان ومتقدمى العلماء من المتكلمين فى الاسلام . فنرى فى هذا المزيج الأفـكار اليونانية بجانب الأفـكار الاسلامية البحتة . كل ذلك يضطرنا الى الاعتراف بما كان للرجل من صدق الحس وثقوب النظر فى استخراج الحقائق .

لم يقتصر هذا الفيلسوف القانع من الحياة بالصمت فى بيته ، والذى كان بيته أشبه البيوت ببيت الناسك ، إلا أن يحارب نزعات الأنانية والاستسلام للذات النفس ، فوضع دستوراً لحدود النفس أمام مفاسد الحياة وما يعتورها من تفسخ وانحلال .

يقول الجاحظ « فى كتاب البخلاء » : إن الـكندى كان بخيلا . فاذا كان ذلك صحيحا فإن ما قدمناه من سخائه ، وما بذله طول حياته من وقت وصحة ، ثروة لا تفنى ، خلفها للانسانية تبقى ما بقى الدهر ؟

عبد الحميد سامى بيومى

صفحات مختارة لأقطاب الفلسفة العصرية

لماذا أنا متدين ؟

يجيب الفيلسوف ساباتييه بقوله : « لأنى لا أستطيع أن أكون غير ذلك »

بذلت الفلسفة الإلحادية فى أوربا جهد المستبسل فى هدم صرح الدين ، واستعملت لذلك كل معول وصلت اليه يدها ، حتى ما لا يصح التعويل عليه من وسائل التضليل والتزوير فى مقررات العلم ، وقد أثرت فلسفتهم تأثيرا عظيما فى الذين لم يؤتوا القدرة على دحض الشبهات ، وقد أصابنا رشاش من طآماتهم هنا ، فرأينا أن من أحسن الذرائع لإبطال مزاعمهم نقل ماصدر ضد هذه الحركة المشؤومة من أقطاب الفلسفة الغربية ، ليعرف الذين غرهم ظاهر هذه الشبهات منا أنها لا تصلح لهدم الدين ، بشهادة من هم أقرب من هؤلاء الملاحدة الى صميم العلم ، وأحذق منهم بصياغة الأدلة .

فنتحف قراء مجلة الأزهر اليوم بترجمة المقال الأول من كتاب جليل القدر للفيلسوف الكبير (أجوست ساباتييه) الفرنسى المدرس بجامعة باريس ، يدعى (فلسفة الدين) ، كافح فيه شبهات الملحدين كفاحا موفقا كان سببا فى اعتبار كتابه علما من أعلام عهد جديد للعاطفة الدينية . قال تحت عنوان :

تأملات انتقادية أولية

« لماذا أنا متدين ؟ إنى ما أثرت هذه المسألة إلا تأديت لأن أجيب عليها جوابا واحدا وهو : أنا متدين لأنى لا أستطيع أن أكون غير ذلك . فان التدين حاجة من حاجات وجودى . يقولون لى : هذا من تأثير الوراثة أو التربية أو المزاج . وقد اعترضت بذلك على نفسى . ولكن تعليل المسألة على هذا الوجه يقهقرها ولا يحلها .

« إن الحاجة الى التدين التى أشاهدها فى حياتى الشخصية ، أشاهدها فى الحياة الاجتماعية للانسانية أكثر قوة . فان الانسانية ليست بأقل منى تعلقا بالعاطفة الدينية . فعبثا يعترض عليها بأن الديانات التى أخذت بها وتركتها ، قد خدعتها الواحدة بعد الأخرى ؛ وسُدًى يهدم لها نقد الفلاسفة والعلماء خرافاتها وأصولها الاعتقادية ، وباطلا يصور لها ما تركته الأديان فى تاريخ البشرية من آثار فظيعة للدماء والنيران ؛ فان الدين لا يزل باقيا وماثلا فى جميع أدوار الثقافة العلمية ، وجميع الانقلابات الثورية ، مثله كمثل نبات شديد الحيوية اجتث ألف مرة من

سطح الأرض ، ولكن جذوره العتيقة أعادته الى ما كان عليه قويا ذا أفنان وريقة . فن أين أتت الدين هذه الحيوية التي لا ينضب معينها ؟ وما هي علة عمومية الدين وخلوده ؟

« أنا لا أستطيع أن أفسر هذا الأمر لنفسى إلا بمحاولة إيضاح وتحقيق آرائى فى الأصول النفسية التى ترتكز عليها العاطفة الدينية ، وفى جوهرها نفسه . سيكون هذا موضوع تأملاتى الأولية .

« قبل التورط فى هذا البحث ، يجب علىَّ أن أبعد سببا خصبا من أسباب إساءة الفهم والوقوع فى الأخطاء ، وخاصة لدى الشعوب اللاتينية . هذه الأسباب مثارها كلمة (الدين) نفسها . فانها لا تعيّن الظاهرة النفسية المراد دراستها إلا تعيينا سيئاً جدا ، لأنها تحيط هذه الظاهرة بآراء تبهمية ، وأحيانا غريبة عنها ، تضلل الذين هم من الثقافة العلمية فى درجة متوسطة . وقد أتتنا هذه الكلمة من شعب هو أقل شعوب الأرض تدينا . وليس لها مرادف لا فى لغة العبرانيين القدماء ، ولا فى لغات اليونانيين والجرمانيين والسلتيين والهنديين ، وأعنى بهؤلاء الأمم الانسانية التى ثبت أنها من الناحية الدينية أعرق الشعوب وأكثرها تجديدا فيها . إن روما هى التى فرضت هذا اللفظ علينا ، كما فرضت علينا لغتها وعقليتها ونظمها .

« فالمسيحيون الأولون لم يكونوا يعرفونه ، وليس له وجود فى كتب العهد الجديد . ولما دخل فى القرن الثالث فى اللهجة المسيحية كابد ضربا من التنصير ، واكتسب معنى يتفق وروح الانجيل . فعرَّف لاكتانس الدين بقوله : « هو العلاقة التى تجمع بين الانسان وربه » . ولكن هذا اللفظ عند كتّاب روما القدامى لم يكن له هذا المعنى الباطنى العميق . فبدلا من أن يعين لاكتانس الناحية الصحيحة الشخصية لكلمة دين ، ويشير الى أنها تعنى ظاهرة نفسية متنزلة من الروح ، حدّها من ناحيتها الظاهرية ، معتبرا إياها مجموعة تقاليد ونظم اجتماعية موروثة عن الأقدمين . وتنصير هذا اللفظ لدى المسيحيين لم يمح منه هذا المعنى ذا الأصل الرومانى . والدين لدى السواد الأعظم من الناس الى اليوم لا يعنى إلا مجموعة طقوس تقليدية ، واعتقادات فيما فوق الشئون الطبيعية ، ونظما سياسية . فهو كنيسة تملك الأسرار الإلهية ، وتقوم على نظام من الرتب الكهنوتية ، لتهذيب الأرواح الآدمية . هذا هو الشكل الذى أدركت العقلية الرومانية الديانة المسيحية عليه ، وحققت وجودها فى العالم الغربى . والسلطان الذى تتمتع به كلمة الدين من الناحية السياسية والاجتماعية على أكثر العقول استنارة ، تقر ماذهب اليه المسيو برونتيير حينما أراد التنبيه على سمو الكاثوليكية على البروتستانتية حيث اكتفى ، متابعا فى ذلك (بوسويت) ، بقوله : إنها أكمل شكل لحكم الشعوب .

« وفى العصور والبلاد التى تغلب فيها هذا الوصف السياسى للدين ، ظهر بضرب من ضروب الضرورة المنطقية تعليل من قبيله لتولد الدين فى الجماعات الانسانية . فقد قالوا :

لما كان الدين يصلح لحكم الشعوب على حالة توجب الإعجاب ، فقد اخترع إذاً للوصول الى هذه الغاية . فهو عمل القساوسة والبراطرة الذين أرادوا بهـذه الوسيلة تثبيت سلطانهم ، وضمان استمراره . على هذه العقيدة كان الرومانيون على عهد شيشرون ، والفلاسفة فى القرن الثامن عشر . ولم تعوز المدافعين عن هـذا الرأى الأدلة عليه . فمن المحقق أن الدين كثيرا ما سُخر لخدمة السياسة ، وأنه قد ثبت أنه أداة عجيبة للحكم . وقد فُضحت تدليسات لابسة لبوس التقوى فى تواريخ جميع الأديان .

« ولـكن ماذا تثبت هذه الحوادث مهما بلغ عـددها المركوم ؟ إنه ليست التدليسات اللابسة لبوس التقوى هى التى أوجدت الدين ، لأنه لولاه لما راجت تدليسات من هذا النوع . فاذا قيل : إن القساوسة هم الذين أوجدوا الدين ، فأنا أسألهم بدورى : وما الذى أوجب وجود القساوسة ؟ أليس لأجل أن توجد القسيسية ، ولأجل أن يجد هذا الاختراع فى الشعوب كلها مشاركةً عامة فى اعتباره ، يجب أن يكون ثاويا فى سويداء القلوب عاطفة دينية ، تحلت هـذا الاختراع صبغة مقدسـة ؟ نعم ، فيجب قلب وضع العبارتين ، والقول بأنه ليست القسيسية هى التى تفسر وجود الدين ، ولـكن الدين هو الذى يعلل وجود القسيسية .

***

« النظرية التى وضعتها الفلسفة الوضعية أعمق معنى ، وأكثر تماسكا . قالوا إن الدين الذى كان موجودا فى أول وجود العالم لم يكن إلا تفسيرا ساذجا للظواهر الطبيعية العجيبة التى كانت تدهش الانسان الجاهل وتزعجه . فهو بداية العلم وصورته الطفلية . وهـذه الصورة يجب أن تترك مكانها على توالى الأحقاب لصور أخرى أرق منها وأكثر إتقانا . ولقد عهدنا الأطفال والمتوحشين يمنحون حياة روحية لـكل ما يحيط بهم . فهم يتخيلون وجود إرادات فعالة خلف جميع الظواهر التى تثير عندهم الخوف أو الرجاء . وبناء على هـذا عمدت مخيلة الأناسى الأولين الى ملء الوجود بعدد لا يحصى من الأرواح الخيِّرة والشريرة ، وتوهموا أنهم يتأثرون بأعمالهم الخفية فى كل صغيرة وكبيرة مما يصيبهم . وقد رأينا الساعة كيف عللوا وجود الدين بوجود القسيسية ؛ وأمامنا الآن تفسير لوجود الدين بسبب وجود الأساطير الخرافية . ولـكن يغيب عنهم أن هذا يلزم منه الدور والتسلسل نفسه الذى تقع فيه بسيكولوجيا ناقصة تخلط بين العلة ومعلولها .

« القول بأن الدين ضرب من العـلم ، يعتبر خطأ لا يقل فى خطورته عن القول بأنه نوع من النظم السياسية . نعم ، مما لا مشاحة فيه أن العقيدة الدينية تكون مصاحبة دائما لشىء من العلم ، ولـكن هذا العنصر العقلى مهما ظهر أنه ضرورى للعقيدة ، فهو ليس فى شىء من مادتها ولا من جوهرها ، وأنه يتغير على الدوام فى أدوار الانتقالات الدينية . والصيغ

المذهبية ، والعبارات الأصولية ، هي وسائل للتعبير والتربية يستخدمها الدين لأغراضه ، ولكن يمكن أن يحل بعضها محل البعض الآخر في أعقاب كل أزمة فلسفية . فالشعائر والمعتقدات قد تضعف أو تزول ، ولكن الدين يبقى على ما هو عليه من القوة بحيث لا يتأتى لأية صورة خارجية أو فكرة اعتقادية أن تستنفد مادته الجوهرية .

« يعرف الناس نظرية الأدوار الثلاثة التي مر بها الفكر الانساني فيما ذهب إليه أجوست كومت وتلاميذه ، وهي : الدور اللاهوتي في العصور الأولية ، ودور ما وراء الطبيعة في القرون الوسطى ، والدور العلمي في العهد الراهن . فاذا كان الدين في جوهره علما ، لكان سرى عليه ما تقتضيه هذه القاعدة المنطقية من أدوار التطور ، وهو زوال الصورة الساذجة من العلم ليحل محلها صورة أرقى منها . والدليل على أن أمر الدين ليس من هذا في شيء ، بقاء الدين وظهوره في جميع العهود ، وفي درجات من الثقافة متباينة كل التباين . والذي يجب أن يتنبه له أن هذه الأدوار الثلاثة المذكورة آنفا ليست متعاقبة ، ولكنها توجد كلها في وقت واحد . فهي لا تقابل ثلاثة عهود من التاريخ ، ولكنها تقابل ثلاث حالات مستمرة للروح الانسانية . فانك تجدها مجتمعة على درجات متخالفة في العهد القديم لدى سقراط وأفلاطون وأرسطو ، وتجدها في العهد الحديث لدى ديكارت وباسكال وليبنتز وكنت وكلود برنار وباستور . وبقدر ما يترقى العلم ويدرك أسلوبه الصحيح وحدوده ، يتميز عن الفلسفة وعن الدين . فليس من الدين البحث العلمي الذي لا يرمي إلا الى تحديد الظواهر وشروط حدوثها في الزمان والمكان ؛ وليس من الدين كذلك الحاجة الفلسفية لفهم الوجود باعتبار أنه مجموعة كونية يمكن فهمها ، وتفسير كل ما هو موجود على أساس من التعليل الصحيح ؛ وليس من الدين أيضا الحاجة الاعتقادية التي إذا فهمت على حقيقتها لم تكن إلا مظهراً أدبيا للغريزة التي تحمل كل كائن على التشبث بالخلود . فكيف لا تظهر هذه الميول المختلفة للنفس في آن واحد ، وعلى سموت متوازية ، وهي موجودة معا في الجبلة الانسانية وفي كل زمان ؟

« فهل لنا أن نذهب للبحث عن أمثلة وأدلة لاستمرار العاطفة الدينية عند من هم أجدر بذلك من أشياع الفلسفة الوضعية أنفسهم ؟

« إن أجوست كومت وهربرت سبنسر وليتريه سيكونون شهودنا العدول على صدق ما نقول . فزعيم الفلسفة الوضعية (يريد اجوست كومت) الذي كان قد أنبأ بالانطفاء المحتم للعاطفة الدينية في النفس الانسانية ، توج مذهبه وختم حياته العلمية بتأسيس ديانة جديدة ، نسجها بقلة مهارة على النظام الكهنوتي ، وطقوس الكاثوليكية الرومانية . نعم ، قد تأسست كنيسة للفلسفة الوضعية تؤدى فيها العبادة لقديسين ، ولها حفلات مقدسة وأعياد سنوية ، وكتاب تعاليم دينية ، على رأسها قس كبير ليس بأقل عصمة من الحبر القائم في روما ، الأمر

الذى هاج على اجوست كومت بعض تلاميذه من جراء محاولته هذه، وأرادوا الاعتذار عنه باتهامه بالجنون . ولكن هذا الاتهام يكذبه الواقع . والحقيقة هى أن اجوست كومت بعد ما فرغ من بناء مذهبه الاجتماعى ، أدرك الدور الذى تقوم به العاطفة والغريزة الدينية فى حياة الشعوب ، فرأى أنه لا يستطيع تدعيم بناء الجماعة المستقبلة إلا بالدين ، فأتاها به على أسلوبه . إنه ليقال إن بعض المبتورين يحسون بحكة شديدة فى مكان أعضائهم المقطوعة ، ويظهر أن اجوست كومت وتلاميذه الذين اتبعوه قد شعروا بما يشبه هذه الحكة ، فأحدثوا ما أحدثوه ، فتكون الطبيعة فى سخريتها بالمستخفين بها قد انتقمت منهم على ما ارتكبوه ضدها من العنف العظيم .

« ولسنا بحاجة لإطالة الكلام فى هربرت سبنسر ، فالناس يعلمون ما آل إليه فى مذهبه قوله (بالموجود الذى لا يمكن إدراكه) من اعتباره قوة غير محدودة ، ولا واعية ، تندّعن مأخذ التفكير ، ولكنها مع ذلك فى نظره العلة المفسرة لكل تطور ، والينبوع العد الذى يستمد منه كل شىء وجوده . فبصرف النظر عن اختلاف الأشياء ، ألسنا نرى فى هذا القول المذهب القديم فى وجوب وجود علة أولية للوجود ، وصورة غير واضحة للإله الذى يقول به المؤمنون ؟ فهل ندهش من أن يصل المفكر الانجليزى على هذا النحو الى إعلان الدين الخالد ، وإلى حصر الحياة العقلية للانسان فى جهدين أصليين أولين : أولها الجهد العلمى الذى يتعقب الظواهر الطبيعية واستحالاتها ، وثانيهما الجهد الدينى الذى يعمل على التأمل الباطنى والعبادة الصامتة للموجود العام ؟

« أما ليتريه فأمره أشد تأثيرا على النفس . فانى أذكر أنى قرأت له صفحة فخمة فى بعض مؤلفاته مؤداها أنه بعد أن طاف الأرض الثابتة للمعارف المحسوسة ، ووصل الى نهايتها القصوى ، جلس على قمة مرتفعة لقطعة من الأرض ممتدة الى البحر ؛ وهنالك وجد نفسه محاطا بالمساتير من كل مكان كأنها محيط لا ساحل له ، وليس لديه لأجل أن يكشف حقيقته سفينة ولا شراع ولا بوصلة ، فوقف يتأمله ، فاعتراه خشوع أمام هذا المجهول ، واستسلم لحركة من العبادة والثقة جددت لفكره قواه ، وأنزلت على قلبه السكينة والسلام . فسألت نفسى عند ذاك : ما معنى هذا التأمل فى هذا المستور الكبير إن لم يكن انفجارا فجائيا للعاطفة الدينية التى زادها العلم المحسوس قوة بدل أن يطفىء جذوتها ؟ وبما أننا هنا حيال ديانة الموجود الذى لا يمكن إدراكه أفلا يعتبر هذا المذهب من الأدلة على أن الدين ليس بعلم ولكنه غريزة ؟

« قد وصلت الآن ، وإن كان هذا المذهب أقدم مما مر ، فإنه يوصل الى ما يقرب من الغاية التى نرمى إليها . فقد قال شاعر لاتينى : (إن الخوف هو الذى ولّد الآلهة) . هذا التعليل إذا فهم على بعض الوجوه فهو صحيح . ذلك أنه مما لا مشاحة فيه أن عاطفة التدين تنبهت فى قلب

الانسان تحت تأثير الخوف الذى سببته له القوى الطبيعية الأولية المضطربة حوله . فانه وقد قذف به عارى الجسم ومجردا من السلاح على كوكب قريب العهد بالبرودة بعد أن كان نارا تتلظى ، كان يمشى وهو يرجف على أرض لا تزال تضطرب تحت قدميه ، واقعا فى حالة من الفاقة والبؤس تملأ فؤاده بذعر عظيم . نعم ولكن يجب إتمام هذا التعليل ، فإن الخوف وحده ليس فى ذاته فى شىء من الدين ، إذا أنه يشل القـوى ، ويطمس العقل ، ويسحق الانسان . فلأجل أن يكون الخوف خصبا من الناحية الدينية، يجب أن يلابسه من لدن وجوده شعور مضاد له ، أى بصيص من الأمل . يجب أن يشعر الانسان وهو بين براثن الوجل بإمكان التغلب عليه ، أعنى أن يؤمل أن يجد فوقه عونا يدفع عنه ما يتوقعه من خطر . وبناء على هذا فالخوف لا يولد الدين عند الانسان إلا لأنه يوقظ فيه الأمل ، ويلهمه الدعاء الذى يفتح لنوازله متسرّبا . هذا هو الصحيح من هذا الافتراض القديم . وهو يقربنا من الينبوع الذى نبحث عنه بوضعنا فى المجال العملى للحياة ، لا فى دائرة النظريات العلمية . فالأمر الذى يعنى الانسان من الدين هو نجاته من العطب ، فاذا ظهر أحيانا أنه يحاول بواسـطته أن يدرك سر الوجود ، فليس ذلك إلا ليحل بهذه الوسيلة سر حياته الشخصية . ونحن بعد أن وصلنا الى هذه النقطة يجب علينا أن نزيد هذه المسألة محاولة . فيتعين علينا أن نرى كيف ينبع الشعور الدينى من خلال المتناقضات الأساسية . وهو ما سنصل اليه بتحليل بسيكولوجى يستطيع كل إنسان أن يتابعه ، وأن يحققه بسهولة إذا كان ممن يملكون القدرة على ذلك بالاعتماد على تجاربهم الخاصة .

* * *

(مجلة الأزهر) : هذه محاولة فلسفية تعتبر أبدع ما أنتجته الفلسفة الأوربية لإثبات أن الدين غريزة طبيعية فى النفس البشرية ، فانظر كيف تتأدى الفلسفة العالية الى تأييد الـكتاب المجيد ؟ أليس كل ما فى هذا البحث الجليل محصورا فى قوله تعالى : « فأقم وجهك للدين حنيفا (فطرةَ الله) التى فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيّم ، ولـكن أكثر الناس لا يعلمون » ؟

محمد فريد وجدى

الكلام والمتكلمون

— ٤ —

المعـــتزلة

تتمة الحديث عن مشاهير زعمائهم :

النظام :

هو أبو إسحاق ابراهيم بن سيار بن هانى . وقد لقبه الجرجانى بأحد شياطين القدرية ، ولا يعرف ما لدينا من كتب التاريخ المعتمدة متى ولد ، وإنما كل ما يعرف عن حياته الخاصة هو أنه نشأ فى البصرة وتلق النظر على أبى الهذيل العلاف وتابعه فى حملته على المانوية ، وأنه عنى عناية فائقة بالرد على الدهرية ، بل كرس لذلك شطرا عظيما من حياته ومجهوداته ، وأنه أمضى السنين الخصبة الأخيرة من حياته فى بغداد ، وأنه طالما اشتعل لهيب الجدل فى تلك الحاضرة بينه وبين زعماء المرجئة والجبرية ، وأهـل السنة والفقهاء ، وأنه حينما اشتهر بعلمه وذكائه انفصل عن مجلس أستاذه أبى الهذيل وأسس مذهبه الخاص الذى كان له على معتزلة بغداد أثر عظيم الشأن ، وأنه هو الذى خلق أهم المشكلات التى كانت موضع الجدل فى عصره ، وهو الذى وجه أعوص الاعتراضات الى أهل السنة ، وأن خصومه كانوا يشنعون عليه زاعمين أنه دهرى رغم ما صوبه الى الدهرية من سهام الطعن والتجريح ، وأن الخليفة المأمون كان يشغف بسماع مناظراته مع أبى الهذيل . وقصارى القول أنه كان حوالى سنة ٢٢٠ هـ ساطعا فى سماء البيئات العربية المثقفة ، وأنه توفى فيما بين سنتى ٢٢٠ و ٢٣٠ هـ — ٨٣٥ و ٨٤٥ م .

أما آراؤه الخاصة فقد كانت متأثرة بالفلسفة الى حد بعيد كآراء كل معتزلة عصر الترجمة . ولهذا يحدثنا الشهرستانى أنه قرأ كثيرا من كتب الفلاسفة وخلط آراءهم بآراء المعتزلة .

غير أنه لما كانت كتبه قد فقدت ولم يبق منها إلا شذرات متفرقة نقلها الينا عنه تلميذه الجاحظ ، فاننا نرى أنفسنا مضطرين الى الاحتياط مما نسب اليه من آراء ، لاسيما وأن مؤرخى الحركة العقلية عنـد العرب قد عزوا اليه آراء كثيرة بعضها مختلق ، والبعض الآخر مشوه أو محرّف ، ونموذج ذلك التشويه ما نسبه اليه البغدادى فى كتابه « الفَرْق » من آراء تعتبر كما يقول أحـد المستشرقين — غاية فى الزيف والتضليل وسوء النية . ويرجح أن يـكون البغدادى قد نقلها عن ابن الراوندى .

ينبغى ، قبل أن نجمل آراء النظام الخاصة ، أن نشير الى أن فـكرتين هامتين قد غلبتا

عنـده كل ما عداها ، وهما : فـكرة التوحيد البرىء من جميع شبه التعـدد وعلائق التآلف مهما ضؤلت ، وعلى أى حال فرضت ؛ وفـكرة جعل القرآن هو المصدر الأوحد للإلهيات والأخلاقيات ، وقد أدخلته هـذه المغالاة فى مخاصمات عنيفة مع جميع الفرق المعاصرة له حتى المعتزلة أنفسهم .

يتلخص أهم هذه الآراء التى انفرد بها فيما يلى :

(١) قوله بأن القبح ليس مقدورا لله . وحجته فى ذلك أن الأولين قالوا : إن الله قادر على الأفعال القبيحة ، ولـكنه لا يفعلها لقبحها . فقـال لهم : إذا كان القبح مانعا من نسبة الفعل اليه ، فانه يجب أن يكون مانعا من نسبة الإمـكان اليه أيضا . ولما اعترض عليه بأن هـذا يستلزم أن تحد قدرة الله ، أجاب بأن القول الآخر يستلزم أن يحـد فعله ، ولا فرق بين الحالتين .

(٢) قوله إن الانسان فى الحقيقـة هو النفس ، والبـدن قالبها ، وإن الروح جسم لطيف مشابك للبدن ، مداخل له بأجزائه مداخلة المائية فى الورد ، والدهنية فى السمسم ، والسمنية فى اللبن (١) .

ويعلق الشهرستانى على هذا الرأى بما يفهم منه أن مبدأه محاكاة للفلاسفة « الميتافيزيكيين » ، ولـكن النظام قصر عن فهم مبادئهم ، فمال الى الطبيعيين منهم وجاراهم فيما قرروه . ولو أن النظام كان قد قرر أن الروح فى البدن كالماء فى الورد ، والدهن فى السمسم ، والسمن فى اللبن ، لـكان ما رماه به الشهرستانى صحيحا . ولـكن بما أنه يقرر أن الروح فى البـدن كالمائية والدهنية والسمنية ، والفرق بين النوعين جلى ، فنحن نرى أنفسنا بازاء هذا مضطرين الى الاحتياط من تهمة الشهرستانى .

(٣) قوله بنظرية الظهور والـكمون التى طعن عليه من أجلها كثير من خصومه الذين لم يفهموه ، والتى لم تكن فى الحقيقة إلا مِعْوَلا قاسيا استعمله فى هدم مذهب الدهرية .

(٤) تصريحه بأن إعجاز القرآن منحصر فيما أنبأنا به من أخبار ماضية ومعلومات ضرورية لنا ، وما احتواه من مغيبات وأسرار ، لا فى أسلوبه الذى كان من الممكن أن يحاكيه البشر لو لم يصرفهم الله عن هذه المحاكاة .

ولا يخفى أن مصدر هـذا الرأى هندى ، إذ أن بعض كهنة البراهمة قرروا أن محاكاة كتابهم المقدس « الفيدا » ممكنة ولـكن إلههم صرف المتحدين عن هذه المحاكاة .

---

(١) انظر صفحة ٦٢ من الجزء الاول من الشهرستانى .

(٥) قوله بأن كل شىء فى الكون خاضع لناموس طبيعى ، ولا يوجد بين الكائنات كائن حر فى فعله وتركه إلا الانسان وحده .

(٦) رأيه القائل بنفى الجزء الذى لا يتجزأ ، وبقبول الأجسام انقسامات لا تتناهى .

(٧) قوله بأن الأعراض ، من طعوم وألوان وروائح ، أجسامٌ . وهذا الرأى الأخير متأثر برأى « الذَّرّيّين » من فلاسفة الاغريق القائل بأن الطعوم والألوان والروائح مؤلفة من ذرات اجتمعت بكميات معينة وعلى حالة خاصة .

(٨) تصريحه بأن كلام الإله جسم مخلوق ، وكلام الانسان أعراض . وغير ذلك من الآراء التى قد يكون غيره شاركه فيها ، ولكنها لم تشتهر عن هذا الغير اشتهارها عنه .

فضل بن الحدثى واحمد بن حابط :

هما من تلاميذ النظام ، وقد زادا على مذهبه أن للعالم خالقين : أحدهما قديم وهو البارى ، وثانيهما محدث وهو المسيح ، بدليل قول القرآن : « إذ تخلق من الطين كهيئة الطير » ، وأن المسيح هو الذى سيحاسب الناس يوم القيامة ، وأنه هو المقصود بقول القرآن : « وجاء ربك والملك صفا » ، وهو الذى يأتى فى ظلل من الغمام ، وهو المعنى بقوله تعالى : « أو يأتى ربك » ، وهو المراد بقول النبى عليه السلام : « إن الله تعالى خلق آدم على صورة الرحمن » . وانفرد أحمد بن حابط عن صاحبه بقوله : إن المسيح تدرع بالجسد ، وهو الكلمة القديمة المتجسدة .

وقد قالا أيضا بالتناسخ ، فزعما أن البارى قد خلق الناس جميعا أصحاء عقلاء فى دار قبل هذه الدار ، وأسبغ عليهم نعمه ، وكلفهم بأوامر ، أطاعه فيها كلها فريق ، وعصاه فيها كلها فريق ثان ، وأطاعه فى بعضها دون البعض فريق ثالث ، فأبقى الفريق الأول فى تلك الدار السعيدة ، وأدخل الفريق الثانى النار ، وأقر الفريق الثالث فى هذه الدار على صور تختلف باختلاف أفعالهم ؛ فمن كانت آثامه أقل ، كانت صورته أقل قبحا ، ومن كانت آثامه أكثر ، كانت صورته أقبح . ولا تزال هذه الحيوانات تعود الى الدنيا مرة بعد أخرى ما دامت آثامها تصحبها .

ومما أثر عنهما أيضا : تأويل الحديث القائل بأنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر ، بأن الذى سيرى كالقمر هو العقل الفعال الذى قال به الفلاسفة (١) .

عمرو بن بحر الجاحظ : — المتوفى فى سنة ٢٥٥ هـ وهو أول موسوعى فى البلاد العربية ، وكان فى مبدأ شبابه تلميذا للنظام ، فتلقى عنه العلم وتأثر بآرائه . ولما نضج صار رئيسا لمدرسة البصرة الاعتزالية ، وقد كتب عددا عظيما من الكتب فى كثير من الفنون والعلوم المختلفة كالأدب والخطابة والتوحيد والفلسفة والتاريخ الطبيعى والجغرافيا ، وقد امتازت كتبه بميزات

(١) انظر صفحة ٦٧ وما بعدها من الجزء الاول من كتاب الشهرستانى .

كثيرة كالدقة والنقد وصوغ المعانى القوية فى ألفاظ أنيقة ، وكتجميل آرائه بزينة الاسلوب تارة ، وبمزجها بالفكاهة تارة اخرى . وإليك ما وصف به المسعودى هذه الكتب ، قال : « ولا يعلم أحد من الرواة وأهل العلم أكثر كتبا منه مع قوله بالعثمانية . وقد كان أبو الحسن المدائنى كثير الكتب ، إلا أن أبا الحسن المدائنى كان يؤدى ما سمع . وكتب الجاحظ مع انحرافه المشهور تجلو صدأ الأذهان ، وتكسف واضح البرهان ، لأنه نظمها أحسن نظم ، ورصفها أحسن رصف ، وكساها من كلامه أجزل لفظ . وكان إذا تخوف ملل القارىء وسآمة السامع ، خرج من جد الى هزل ، ومن حكمة بليغة الى نادرة ظريفة » . (١)

ومن أبرز آرائه قوله : إن معنى كون الإله عالما أنه لا يجوز عليه السهو ولا النسيان . ومعنى كونه مريدا أنه ليس مكرها ، وأن من اعتقد وحدة الإله ورسالة محمد لم يكلف بعد ذلك شيئا ، وأن من دان بالتشبيه أو بالجبر فهو كافر . أما أسخف ما نسب إليه من الآراء فهو قوله بان القرآن جسم ، تارة يكون رجلا ، وتارة يكون امرأة .

محمد الجبائى وابنه أبو هاشم — هما من بقايا تلاميذ المدرسة الواصلية . وقد كانا من أبرز أهل عصرهما وأذكاهم ذهنا ، وأكثرهم علما ، وأعلاهم كعبا فى النظر والبحث ، فأقرا كل أصول المعتزلة وزادا عليها أن إرادة الرب حادثة لا فى محل ، وأنه متكلم بكلام يخلقه فى جسم . وانفرد الجبائى بأن معنى كون الله سميعا بصيرا هو أنه حى لا آفة به ، وأنه يجب على الله لمن يكلفه إكمال عقله ، وتهيئة أسباب التكليف له . وانفرد أبو هاشم بقوله : إنه لا يتعلق علم بمعلومين على التفصيل ، وصرح بأن جحود قدماء المعتزلة الصفات بتاتا ضرب من التعسف ، وأن الحق هو أن العلم والإرادة والقدرة هى أحوال لله ، بها يعلم ويقدر ، وهى ليست معلومة ولا مجهولة ، أى أنها لا تعرف وحدها ، وإنما مع الذات فقط . وهذه الأحوال هى التى شبهها الشهرستانى بأقانيم المسيحية كما أسلفنا .

هذا ، وسنوالى البحث فى الفصول المقبلة فى مميزات المعتزلة ومذهبهم العام ؟

الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

---

(١) انظر صفحتى ١٣٥ و ١٣٦ من الجزء الرابع من كتاب « مروج الذهب » للمسعودى طبعة القاهرة سنة ١٩٣٨

ذكرى ميلاد النبي الكريم

« محمد رسول الله »

« هو الذى بعث فى الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإنْ كانوا من قبلُ لفى ضلال مبين »

ليس من الحديث المكرر ، ولا من القول المردد ، أن يعاود الكاتب البحث فى شخصية النبى عليه السلام ، كلما جاءت ذكرى ميلاده ، أو ذكرى هجرته ، أو ذكريات غزواته ، أو أى عمل من الأعمال الجليلة التى قام بها ، والتى انتظمت عقداً تحلى به جيد الدهر ، وصار الناظر الى كل درة من درر هذا العقد ، يبهره سناؤها ، وتستولى على مشاعره وحواسه دهشة الإعجاب .

ولا غرو أن تكون ذكرى ميلاده باعثاً قوياً ، وحافزاً ملحاً ، للكاتبين والواصفين ، فى أن يكشفوا للناس بعض صفاته الخلقية : من الشجاعة ، والكرم ، ولين الطبع ، وقوة العزم ، وكمال التضحية ، والصبر على تحمل المشاق ، فى سبيل القيام بالواجب ونصرة الحق .

ففى محمد صلوات الله عليه — وقت أن كان جنيناً فى بطن أمه — عبرة وعظة ؛ وفى رضاعه عبرة وعظة ، وفى معيشته والحصول على رزقه — قبل بعثه — عبرة وعظة . فهو الذى حملت به آمنة بنت وهب بن عبد مناف سيد بنى زهرة ، ولما يمض على حملها إلا القليل من الزمن حتى أدركه اليتم بموت أبيه . وحان موعد ميلاده ، الذى كان ينتظره جده عبد المطلب بفارغ الصبر ، فأشرقت الدنيا به فى الليلة الثانية عشرة من ربيع الأول (٢٠ من ابريل سنة ٥٧١) ، فأسماه جده عبد المطلب (محمداً) .

ولقد انتظرت أم اليتيم مجىء المراضع من بنى سعد لتدفع بطفلها الى إحداهن ، ليشب فى البادية على الصفات الحميدة ، وتلك عادة أشراف أهل مكة ، فانهم كانوا يسلمون أطفالهم الى المراضع من أهل البادية . ولكن من هى تلك التى ترغب فى أخذ ذلك اليتيم ، الذى لا يستطيع أهله دفع ما تطلبه المراضع ، من مال ونحوه ؟

ولقد كانت حليمة بنت أبى ذؤيب السعدية ، ممن عرض عليهن هذا اليتيم ، فأبت أن تأخذه أول الأمر ، ولما لم تجد من الأطفال من تأخذه ، رضيت بأخذ محمد صلى الله عليه وسلم .

ولئن كان محمد قد أدركه اليتم بموت أبيه وهو فى بطن أمه ، فقد ماتت أمه وهو فى السادسة من عمره وهى آيبة من المدينة ، بعد زيارتها لبنى النجار ، أخوال زوجها عبد الله ابن عبد المطلب ، فرجعت به أم أيمن الى مكة ، بعد أن أصبح يتيماً من الأبوين . ولم تمض

على هذه الحادثة الممضّة الأليمة إلا سنتان ، حتى توفى جده عبد المطلب ، الذي كان يحنو عليه حنوا يفوق حنوه على أبنائه .

ومحمد بعد ذلك ينتقل الى كفالة عمه أبي طالب ، ويرحل معه الى الشام ، ليتدرب على التجارة ، ويتعرف مسالكها وأضربها .

ولسنا نطيل الحديث فى هذه الأدوار التى مر بها محمد قبل بعثه ، بل الذى يعنينا العناية كلها ، ما قام به من الأعمال ، بعد أن حمل رسالة ربه ، وكلف بتبليغ خلقه ، وأنزل الله عليه : « يأيها المدثر قم فأنذر . وربك فكبر » .

حينذاك واجه محمد قبائل متنافرة ، وعادات سيئة . لحروب يحمي وطيسها ، وتغلي مراجلها ، وتشتد أهوالها ، لأتفه الأسباب . ومعتقدات متضاربة نشأت من ظلمة العقول ، وانحطاطها الى الحضيض من الإدراك .

ولقد كانت جزيرة العرب ، مشتملة على أقوام لا يعتقدون بالخالق ويقولون : ماهى إلا أرحام تدفع ، وأرض تبلع ، وما يهلكنا إلا الدهر . وقد حكى الله عنهم ذلك فقال : « وقالوا ماهى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ، وما يهلكنا إلا الدهر » . وبجانب هؤلاء وجدت فئة تؤمن بالخالق وتنكر البعث ، وفى هؤلاء يقول الله تعالى : « بل هم فى لَبْس من خلق جديد » .

وبجانب هؤلاء وأولئك ، كان عُبّاد الأصنام : من بنى كلب ، وهذيل ومذحج ، وهمذان وثقيف ، وقريش وكنانة ، والأوس والخزرج ، يعبدون : اللات والعزى ، ومناة ، ووداً وسواعا ، ويغوث ، ويعوق ، ونسرا . يحكى عنهم القرآن فيقول : « وقالوا لا تذرنّ آلهتكم ولا تذرنّ وَدًّا ، ولا سُواعاً ، ولا يَغوثَ ، ويعوق ونسراً » .

وبجانب من تقدم ، كان اليهود والنصارى الذين استحكم بينهم الخلاف ، واشتد الجدال ، وطال الحوار . وقد حكى الله تعالى ذلك عنهم فقال : « وقالت اليهود ليست النصارى على شيء ، وقالت النصارى ليست اليهود على شيء » « وقالت اليهود عزير ابن الله ، وقالت النصارى المسيح ابن الله » ، الى غير ذلك مما ورد فى القرآن الكريم ، من طعن كل من أهل هاتين الديانتين فى الديانة الأخرى .

***

ولقد كانت هذه المعتقدات المتضاربة المتنافرة ، سببا فى الاضطرابات المتتالية ، والدماء المراقة ، فى هذه الجزيرة التى طوحت بها ظلمة العقول ، واشتداد الجهل ، وفشو الخرافات ؛ وكان لا بد للرسول عليه السلام من أن يوطد لدينه ، ويمهد لدعوته ، ويثبت أركان رسالته فى هذه الجزيرة ، مهبط وحيه ، حتى يستطيع بعد ذلك أن يعمم رسالته ، ويبلغها الى جميع سكان المعمورة .

فكر النبي صلى الله عليه وسلم في جمع الكلمة ، وربط القلوب ، وتوحيد الاتجاه ، وقد تم له ذلك ، إذ يقول الله تعالى مخاطبا نبيه عليه السلام : « وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله ، هو الذى أيدك بنصره ، وبالمؤمنين . وألف بين قلوبهم ، لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ، ولكن الله ألف بينهم ، إنه عزيز حكيم » .

ولم تكن التشريعات الاسلامية تفرق بين غني وفقير ، ولا بين قوي وضعيف ، وما ذاك إلا لأن الاسلام دعا الى الوحدة ، وإلى الأخوة ، وإلى المساواة ، إذ يقول الله تعالى : « إنما المؤمنون إخوة » ، وإنما جاءت التكاليف الاسلامية موافقة للفطرة ، ملائمة للطبيعة الانسانية : لا عسر فيها ، ولا إرهاق ، ولا إعنات ، قال تعالى : « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » وقال : « يريد الله بكم اليسر ، ولا يريد بكم العسر » ، وقال : « وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم ، وما جعل عليكم فى الدين من حرج » ؛ وقال : « ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج » . فهو دين سمح ، لين سهل ، يكره الغلو ويبغض التشدد ، ويبيح للنفس التمتع بالطيبات ؛ يقول الله جل وعز : « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده ، والطيبات من الرزق ، قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا ، خالصةً يوم القيامة ، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون » ؛ ويقول : « ياأهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم » .

***

حدد الاسلام العلاقة بين الحاكم والمحكوم ، وبين الراعى والرعية ، على أحسن وجه ؛ وأسسها على أقوم قواعد ، تنتج الصالح العام ، وعدم ضياع حق الفرد على الأمة ، وحق الأمة على الفرد ، وتحقق تكاتف القوى ، واتجاهها لغاية سامية ؛ فجعل الحكم شورى لا استبداد فيه ، ولا تجبر ولا طغيان ، إذ يقول الله تعالى : « وأمرهم شورى بينهم » ، ويخاطب رسوله الأمين صلوات الله عليه بقوله : « وشاورهم فى الأمر » . وقد كانت أعمال النبي صلى الله عليه وسلم شاهدة بذلك ، فكثيرا ما جمع أصحابه ، واستشارهم فى أمور مالية وسياسية ، وحربية ، فتراه فى غزوة (أحُد) يأخذ رأى أصحابه فى اختيار أحد أمرين ، هما : انتظار المؤمنين فى المدينة ، أو الخروج الى لقاء العدو خارجها ، وقد كان رأيه ورأى بعض أصحابه المكث بالمدينة ، ورأى الأغلبية الخروج الى لقاء العدو ، فنفذ عليه السلام رأى الأغلبية ، وخرج لملاقاة العدو ؛ فكانت الشورى أساس نظامه .

وقد جعل الاسلام بجانب الشورى فى الحكم ، وجوب الطاعة من الرعية لأولى الأمر ، إذ يقول الله تعالى : « ياأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، فإن تنازعتم فى شيء فردوه الى الله والرسول ، إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلا » .

***

تلك لمحات جاشت بالنفس عند ذكرى مولد النبي الأمي ، ذلك المصلح العظيم الذي ولد ليولد على يديه دين الفطرة ، ولتوجد في أسس هذا الدين الفطري ، مصالح الناس منظمة محققة ، تسعى لهم ويسعون لها آمنين مؤمنين .

فهل عند ذكر الميلاد المحمدي أو ذكراه ، يذكر لذلك الدين مجد ، وسمو ، وفضل على الدنيا ؟ الدنيا التي تشهد للاسلام بالسلام ، كما تشهد للانسان بالنسيان والطغيان .

صدق الله تعالى ، له الحجة على ابن آدم بعد أن قال له :

« وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا ، وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون » ؟

عبد الله المراغي
وكيل قسم المساجد



دين الاسلام كما يحفظه المسلمون

THE RELIGION OF ISLAM

يرى حضرات قرائنا أننا ألحقنا اليوم بمجلة الأزهر ملزمة انجليزية تحت عنوان (The Religion of Islam) وهي الملزمة الأولى من كتاب قيم وضعه حضرة الأستاذ الألمعي الجليل أحمد غلوش رئيس جمعية منع المسكرات في القطر المصري ، ووضعه خصيصا للتعريف بالاسلام للامم التي تتكلم الانجليزية ، وقد سبق لنا الاطلاع على هذا الكتاب الذي اطلع عليه عدد كبير من رجال العلم الانجليز والعرب ، فوجدناه جديرا بأن ينشر ملحقا لمجلة الأزهر تباعا حتى يتم ، والذي يجعل لهذا الكتاب قيمة كبيرة أن واضعه الفاضل توخى فيه بيان مزايا الدين الاسلامي ، وصلاحيته لكل زمان ومكان ، وتوفيته لجميع حاجات القلوب والعقول ، بعبارات بليغة تؤثر في قارئيه من أهل تلك اللغة أبلغ تأثير . وقد جلى فيه المسائل الاسلامية الكبرى تجلية جديدة بباحث واسع الاطلاع ، نير البصيرة .

في عالم الأدب العربي

نظرات فى الادب العربى

جاهليّه وإسلاميّه

— ٣ —

جناية الأدب الجاهلى ، على الأدب العربى أيضا

لم يكن صاحب هذا البحث ذاعِرَه ، ولا أول من وفق الى إثارته ؛ فقد عرفتَ أنّ الشاعر أبا نواس قد طرقه ، واستهجنه ؛ وأكبر ظنى أنه لولا تلك النزعة الشعوبية التى كانت تبدو من خلل أشعاره ، لمضى به ، ونجح فيه ، ولم يأخذه عليه أحد . ويؤيد هذا الظن ما زعموا : من أن أول من تنبه الى ذلك مطيع بن إياس العربى الكنانى ، وهو شاعر من طبقة كانت فى صدر الدولة العباسية ، قبل أبى نواس وأبى العتاهية ، قالوا : وقد اجتمع بفتى من أهل الكوفة ، ودار الحديث بينهما فى هذا الشأن ؛ فقال مطيع :

لَأحسنُ من بِيدٍ يحَارُ بها القطا ... وَمِن جبلَى طَىّ ، ووصفكما سَلْعا

تلاحظ عينى عاشقين ، كلاهما ... له مقلة فى وجه صاحبه تَرْعَى

وكذلك تنبه له النقاد ؛ فهذا ابن رشيق يقول : « وليس بالمُحْدَث من الحاجة الى أوصاف الإبل ونعوتها ، والقفار ومياهها ، وحمر الوحش ، والبقر ، والظّلمان ، والوعول — ما بالأعراب وأهل البادية ؛ لرغبة الناس فى الوقت عن تلك الصفات ، وعلمهم أن الشاعر إنما يتكلفها تكلفا ، ليجرى على سنن الشعراء قديما ؛ وقد صنع ابن المعتز وأبو نواس قبله ومن شاكلهما فى تلك الطرائق ، ما هو مشهور فى أشعارهم ؛ كرائية الحسن فى الخصيب ، وجيمية ابن المعتز المردفة فى الضرب الثانى من الكامل . والأولى بنا فى هذا الوقت ، صفات الخمر والقيان ، وما شاكلهما ، وما كان مناسبا لهما ، كالكؤوس والقنانى والأباريق ، وتفاح التحيات ، وباقات الزهر ، الى ما لا بد منه : من صفات الخدود والقدود والنهود ، والوجوه والشعور ، والريق والثغور ، والأرداف والخصور ؛ ثم صفات الرياض والبرك والقصور ، وما شاكل المولدين ؛ فان ارتفعت البضاعة ، فصفات الجيوش وما يتصل بها ، من ذكر الخيل والسيوف ،

والرماح والدروع ، والقسى والنبل ، الى نحو ذلك ، من ذكر الطبول ، والبنود ، والمنجرفات والمنجنيقات ؛ وليس يتسع بنا هذا الموضع لاستقصاء ما فى النفس من هذه الأوصاف الخ » اه .

بيد أن الظاهرة البارزة ، التى تبدو سافرا للقارئ الكريم : أن الشعراء والنقاد القدامى ، تناولوا الموضوع برفق ، وعالجوه فى هوادة ولين ؛ فأما بحّاثتنا العلامة ، فقد تناوله بعنف ، وثار فيه ثورة جامحة ، كلها لهب ، وكلها صخب ، وكلها هدم ، وكلها تدمير ؛ وليس فيها مخالفات ، ولا جنح مركزية ، بل كلها جنايات ، محكوم فيها بالإعدام ، بلا نقض ولا إبرام ! !

***

لا جرم أن للأدب الجاهلى الأثر البالغ فى الأدب العربى ، لقيامه منه مقام الأصل من الفرع ، كما أسلفنا القول ؛ ولكن هذا الأثر لم يجن على الأدب العربى ، ولم يَحُدّ من فراهته ، ولم يقصر به دون السمو الى الغايات ، فى قوة النسج ، وسمو الخيال ، واتساع الأغراض ، وبديع المعانى ؛ وما كنت لأشرح هنا ما تكفلت به كتب تاريخ الأدب للمدارس الثانوية والعالية ، من أدلة ذلك ، فهو من الحديث المعاد ؛ وإن حسبى أن أقول : إن رجال النقد الأدبى على أن الشعر الاسلامى : شعرَ الأخطل والفرزدق وجرير ، وغيرهم من شعراء بنى أمية — أفضل من شعر الجاهليين ؛ بل لقد تعدوهم ، فقدموا شعر الصدر الأول من العصر العباسى ، على الشعر الجاهلى . قال العلامة ابن خلدون : « إنا نجد شعر حسان بن ثابت ، وعمر بن أبى ربيعة والحطيئة وجرير والفرزدق وغيلان ذى الرمة والأحوص وبشار ، ثم كلام السلف من العرب فى الدولة الأموية ، وصدر من الدولة العباسية ، فى خطبهم وترسيلهم ، ومحاوراتهم للملوك — أرفع طبقة فى البلاغة من شعر النابغة ، وعنترة ، وابن كلثوم ، وزهير ، وعلقمة بن عبدة ، وطرفة بن العبد ؛ ومن كلام الجاهلية ، فى منثورهم ومحاوراتهم ؛ والطبع السليم ، والذوق الصحيح ، شاهدان بذلك للناقد البصير بالبلاغة . والسبب فى ذلك ، أن هؤلاء الذين أدركوا الاسلام ، سمعوا الطبقة العالية من الكلام فى القرآن والحديث اللذين عجز البشر عن الإتيان بمثلهما ، لكونها ولجت فى قلوبهم ، ونشأت على أساليبها نفوسهم ، فنهضت طباعهم ، وارتقت ملكاتهم فى البلاغة ، على ملكات من قبلهم من أهل الجاهلية ، ممن لم يسمع هذه الطبقة ولا نشأ عليها ؛ فكان كلامهم فى نظمهم ونثرهم ، أحسن ديباجة ، وأصفى رونقا من أولئك ، وأرصف مبنى ، وأعدل تثقيفا ، بما استفادوه من الكلام العالى الطبقة ؛ وتأمل ذلك ، يشهد لك به ذوقك ، إن كنت من أهل الذوق والتبصر بالبلاغة » اه .

أما أبو الفتح بن جنى ، فيقول : « المولدون يستشهد بهم فى المعانى ، كما يستشهد بالقدماء فى الألفاظ » . ويعلل ذلك ابن رشيق ، بأن المعانى إنما اتسعت ، لاتساع الناس فى الدنيا ، وانتشار العرب بالاسلام فى أقطار الأرض ، فمصّروا الأمصار ، وحضّروا الحواضر ، وتأنقوا

فى المطاعم والملابس ، وعرفوا بالعيان عاقبة ما دلتهم عليه بداهة العقـول ... وصفة الانسان ما رأى ، يكون — لا شك — أصوب من صفته ما لم ير ؛ وتشبيهه ما عاين بما عاين ، أفضل من تشبيهه ما أبصر بما لم يبصر . .

ثم قال : « ولم أدل بهذا على أن العرب خلت من المعانى جملة ، ولا أنها أفسدتها ؛ لـكن دللت على أنها قليـلة فى أشعارها ، تـكاد تحصر لو حاول ذلك محـاول ؛ وهى كثيرة فى أشعار المتأخرين ، وإن كان الأولون قد نهجوا الطريق ، ونصبوا الأعلام للمتأخرين ... ومن هذا يتبين ما فى أشعار الصدر الأول الاسلاميين ، من الزيادات على معانى القدماء والمخضرمين ، ثم ما فى أشعار طبقة جرير والفرزدق وأصحابهما من التوليدات والإبداعات العجيبة ، التى لا يقع مثلها للقدماء ، إلا فى الندرة القليلة ، والفلتة المفردة ؛ ثم أتى بشار بن برد وأصحابه ، فزادوا معانى ما مرت قط بخاطر جاهلى ، ولا مخضرم ، ولا إسـلامى ؛ والمعانى أبدا تتردّد وتتولد ، والـكلام يفتح بعضه بعضا » ا هـ .

وقال الجاحظ : « طلبت علم الشعر عند الأصمعى ، فوجدته لا يحسن إلا غريبه ؛ فرجعت الى الأخفش ، فوجدته لا يتقن إلا إعرابه ؛ فعطفت على أبى عبيـدة ، فوجدته لا ينقل إلا ما اتصل بالأخبار ، وتعلق بالأيام والأنساب ؛ فلم أظفر بما أردت إلا عند أدباء الـكتاب ، كالحسن ابن وهب ، ومحمد بن عبد الملك الزيات » . قال الصاحب : فلله أبو عثمان ! فلقد غاص على سرّ الشعر ، واستخرج أرقّ من السحر ! !

ولا غرو ، فقد قيل : الـكتاب دهاقين الـكلام . ومما يؤيد ذلك قول ابراهيم بن العباس الصّولى ، يمدح الفضل بن سهل :

لفضـل بن سهـل يدٌ تقاصر عنها المثـل
فبـاطنهـا للنـدى وظا هـرها للقبـل
ونائلهـا للغـنى وسـطوتها للأجـل

وقد تناول ابن الرومى هذا المعنى فأجاد ، حين قال :

مقبَّل ظهر الـكف ، وهّاب بطنها له راحـة فيها الحطيم وزمـزم
فظاهرها للناس ركن مقبَّل وباطنها عين من الجود عيْلَم

ولـكن الأول أخف وزنا ، وأرشق لفظا ومعنى ؛ وبيتاه — وإن كان فيهما زيادة — بإزاء البيت الأوسط فقط من أبيات ابراهيم الصولى .

ومن قوله فى هجاء ابن الزيات ، وقد بلغ فيه أبعد الغايات :

فـكن كيف شئت ، وقـل ما تشاء وأرعـدْ يمينا ، وأبرق شمالا
نجابك لؤمـك منجى الذباب حمتـه مقاذيره أن ينـالا

وما أحسن قول ابن الزيات :

مالى إذا غبتُ لم أُذكر بواحدة وإن مرضت فطال السقم ، لم أُعَدِ ؟
ما أعجب الشيء ، ترجوه فتحرمه قد كنت أحسب أنى قد ملأت يدى !!

وعلى الجملة : كم ترك الأول للآخر ! !

***

من المفروغ منه ، أن مستوى الشعر قد انحط فى العهود الأخيرة ، وأن جيده ومطبوعه لا يكاد يحس الى جانب زيفه ومصنوعه ؛ ولكن مردّ ذلك ليس الى جناية الأدب الجاهلى ، كما يرى الباحث الكريم ، أو تأثره ، كما يرى القدماء ؛ بل الى ضعف العلوم والآلات ، وانحطاط الثقافة العربية أولاً ، والجهل بالثقافات الحديثة ثانيا . وإلا فقد امتدت جناية الأدب الجاهلى على الأدب العربى منذ صدر الاسلام ، ومع ذلك فقد تمردت عليها الآداب العباسية تمردا ، وطغت عليها طغيانا مبينا .

ويلذ لى أن أستدل هنا بقول صاحب ضحى الاسلام جـ ١ ص ١٤ : « فإذا نحن طفرنا الى العصر العباسى ، وجدنا الناس ، وخاصة الفرس الذين دخلوا الاسلام ، لم يعودوا يتذوقون الشعر العربى الجاهلى ، وإنما يتذوقون ما ألفوا ، من التغنى فى شعرهم بالحب ، والخمر ؛ فظهر العباس بن الأحنف الخراسانى البيئة ، وأبو نواس الفارسىّ الأم ، يشبعان ذوقهما : الأول فى عشقه ، والثانى فى خمرياته . قد كان للعربى الجاهلى شعر فى الحب ، وشعر فى الخمر ؛ ولكن شتان بين خمريات طرفة ، وخمريات أبى نواس ؛ وشتان بين شوق امرئ القيس ، وشوق العباس . ويعجبنى فى ذلك قول الجاحظ : « كم بين قول امرئ القيس : تقول وقد مال الغبيط بنا معا ، وبين قول على بن الجهم :

سقى الله ليلا ضمّنا بعد هجعة وأدنى فؤادا من فؤاد معذب
فبتنا جميعا ، لو تُراقُ زجاجة من الراح فيما بيننا لم تسرّب

فقد أخذ الفرس الوزن العربى ، والقافية العربية ، والأسلوب العربى ؛ ولكن أخذوا بجانب ذلك الخيال الفارسى ، والذوق الفارسى» اهـ .

وقد تأثر حبيب والمتنبى بالعلوم الفلسفية تأثرا أسرفا فيه إسرافا ، جرّ عليهما النقد ، لأن الشعر ما أطرب ، وهزّ النفوس ، وحرّك الطباع ؛ والفلسفة باب آخر غير الشعر ؛ وهذا باب أشهر من أن يدلّ عليه ، أو ينصّ بالإشارة إليه .

وليس عصرنا الحاضر بدعا من العصور الأخرى ؛ فمتابعو الحركة الفكرية فيه ، لا يعوزهم الدليل على صحة ما نرى : من ردّ ضعف الشعر ، وغير الشعر من فنون الأدب ، الى ضعف

الثقافة ، وشيوع النوع « الشيطانى » منها . وإنّ حسبك أن تستعرض تاريخ الفئة القليلة ، التى تحسن النقد الأدبى اليوم ، لتؤمن إيمانا صادقا بأن الثواب على قدر المشقة ؛ فان أحدا منهم لم يبلغ مابلغ ، حتى عَلّ ونهل من صميم الثقافة العربية فى الأزهر ، ثم انتجع أوربة ، فعلّ ونهل من مورد طريف ؛ فأنتج هذا «التطعيم الثقافى» مزيجا ، فيه متانة القديم ، وفيه طرافة الجديد ؛ ولا عجب أن تجىء منازلهم فى ذلك متفاوتة ، عند من عرف تفاوت حظوظهم من النضج الأزهرى ؛ فليس من شك فى أن التفوق والتبريز ، من نصيب المتفوق المبرز فى الثقافة العربية وإلا عَسُرَ المزج ، واستحال الهضم ؛ وجاء الإنتاج أخلاطا غير متماسكة ، وأمشاجا غير متشابكة ، ينكرها الشرق ، وينفيها الغرب ، فلا الى هؤلاء ، ولا الى هؤلاء .

أما بعد ، فقد أخذ علىّ بعض الأصدقاء ، أننى لم أصرح بأسماءِ مَنْ أتعرض لنقد آرائهم ؛ وجوابى : أننى ما أردت رداً ؛ فإن وقت الرد قد فات ؛ بل أردت مناقشة هذه الآراء فى جملتها ، وبيان وجهة النظر الأزهرية فيها ، توجيها لأبنائى من طلبة كلية اللغة العربية ، وتكميلا لمادتهم الدراسية ؛ فهذه النظرات الأدبية العابرة ، أبحاث صحفية ، متممة للبحوث المدرسية . على أن مثيرى هذه الموضوعات ، أشهر بآثارهم ومراكزهم ، من أن أدل عليهم ، أو أشيد بذكرهم .

وقد أشار أستاذى العلامة مدير مجلة الأزهر بالإيجاز ، فلأنزل على أمره ؛ ولأكتف فى تحقيق « جناية الأدب الجاهلى » بما قدمت ، وأنقل الحديث الى موضوع آخر . فالى اللقاء ؟

عبد الجواد رمضان
كلية اللغة العربية

ماهية التصوف

سئل رويم الصوفى عن الصوفى فقال : هو الذى لايملك شيئا ولا يملكه شىء .

وسئل رويم عن الأنس فقال : هو أن تستوحش من غير الله حتى من نفسك .

وقد سمع رويم ينشد :

ولو قلت لى مت متُّ سمعا وطاعة وقلت لداعى الموت أهلا ومرحبا

نقول : ربما ظن بعض الناس أن التصوف يغرى صاحبه بأن يكون عالة على غيره . وقد دحض عمر الفاروق هذه الشبهة بنفسه ، وقد سأل ناسا من أهل اليمن عن حالهم فأجابوه بأنهم متوكلون ، فقال لهم : كذبتم بل أنتم متأكلون ! ألا أخبركم بالمتوكل ؟ هو رجل ألقى حبة فى بطن الأرض توكلا على الله .

وقال عمر رضى الله عنه : من أظهر للناس خشوعا فوق ما فى قلبه ، فإنما أظهر نفاقا على نفاق .

دراسات في القرآن الكريم

المجاز والكناية فى كتاب الله

تحت هـذا العنوان كتبت فى عدد من آى القرآن الـكريم . وسأكتب اليوم فى قوله تعالى : «وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم؟ قالوا بلى ، شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين . أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبلُ وكنا ذرية من بعدهم ، أفتهلـكنا بما فعل المبطلون» .

وفى تفسير هذه الآية يقول المفسرون : إن معنى قوله تعالى : «وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم» أن الله تعالى مسح ظهر آدم فاستخرج منه ذرية ، ثم قال : هؤلاء للنار ، واستخرج فريقا آخر ، ثم قال : هؤلاء للجنة ؛ وبنوا على ذلك ما يدّعونه عالم الذّر ، وأن ذلك العهد كان فى هذا الحين الذى ذكروه .

يذكرون ذلك ، وإنا إذا رجعنا الى أصـول الدين المقررة المقطوع بهـا والمجمع عليها ، وجدنا ما ذكروا فى تفسير هـذه الآية من حديث عالم الذر الذى تخيلوه تخالوه ، ما يتنافى مع تلك الأصول منافاة واضحة لا تحتمل جدلا ، ولا تقبل مراء .

أليس من المعروف قطعا ، والمعلوم ضرورة ، والمتفق عليـه من جميع الفقهاء ، فى جميع العصور ، أن البلوغ هو الحد لجميع التكاليف التى جاء بها الاسـلام ، لأن الشارع الحكيم ، ومكون النفوس ومقدرها ، وعالم تطوراتها وقواها ، قد علم أن ذلك هو السن التى تتم فيها العقول ، وينضج فيها النظر؟ فكما ترى ، قد اقتضت حكمته السامية ألا يكلفهم قبل هذه السن ، وإن كانوا ناطقين مميزين ، يفهمون الخطاب ويدركون مقاصده ، ولـكنهم مع هـذا خفيفة أناتهم ، خداج أنظارهم ، مزدهاة أحلامهم . وبهذا تعلم أنه يكون من غير المعقول ولا المتصور أن يكلفهم وهم رضّع فى مهودهم ، وتعلم أنه أبعد من هـذا عن المعقولية والتصور أن يكلفهم وهم فى بطون أمهاتهم ، وإن كانت قد نفخت الروح فيهم ؛ أو أن يكلفهم مضغا أو علقات ، أو نطفا فى الأرحام .

وإذا كان كـذلك ، وأنهم لم يكلفوا فى أطوار وجودهم ، مادنا منها من العدم وما بعد ، فـكيف يكون من الله أن يكلفهم فى ذلك العالم : عالم الذّر ، وهم فيه عدم ليس لهم من اعتبارات

الوجود إلا أن الله يعلمهم ، إذ علم الله محيط بالغابر والحاضر والمستقبل ، محيط بالواجب والممكن والمستحيل ؟

وكيف يجوز على الله وهو الحكم العدل ، أن يؤاخذ من الناس من يخالف ذلك العهد وهم ما سمعوه ولا قرءوه ولا علموه ، ولا خطر فى أنفسهم ولا على أقل وجوه الخطور ، ولا كما تخطر أضغاث الأحلام ، ولا كما يهجس الخيال بالأوهام ؟

هذا ما ندحض به هذا الذى أولوا به تلك الآية الكريمة أولاً ؛

وأما ثانيا : فإن من الأصول المقررة والمتفق عليها ، هو أن أهل الفطرة ناجون ، وقد استندوا فى هذا الأصل أولاً : لقوله تعالى : «وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا» ، وثانيا : لقوله تعالى : « رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » . فالآية الأولى كما ترى تدل فى صراحة على أن الله عز وجل لا يوجه مؤاخذة على أحد من الناس حتى يعذر اليه بإرسال الرسل ، ليوقظوا الشعوب من نومهم ، وينبهوهم من غفلتهم ، ويبينوا لهم طريق الحق والمصلحة . كما أن الآية الثانية تدل فى قوة وصراحة على أنه لا يقطع حجة الناس نحو ربهم وخالقهم إلا إذا بُعثت اليهم الرسل يبشرون المستجيبين للحق ، وينذرون من أعرض ونأى . فهل يمكن مع هذا أن تطاوعنا عقولنا فنجيز أن يؤاخذ الله الناس ويحاسبهم بعهد يؤخذ عليهم قبل أن يوجدوا ، وقبل أن توجد آباؤهم بل وأجدادهم ، كما هو مقتضى تصوير عالم الذر الذى يحدثون عنه ؟ !

على أنه لو صح أن يراد من الرسول فى قوله تعالى : « حتى نبعث رسولا » العقل ، لما تغير الموقف ، ولبقيت الحجة قائمة قوية على عدم صحة هذا الذى حملوا عليه الآية : من أن العهد قد أخذ على بنى آدم يوم استخرج الله من ظهر آدم ما أراد أن يخلقه من البشر ؛ إذ أنه مع هذا التأويل يكون قد بقى أن العقل شرط للمؤاخذة والتكليف ، وقد علمت أنه حتى اشتراط العقل للتكليف لم يطلق إطلاقا ، بل قد جعل ارتباط التكاليف به مقيدا بنصاب منه خاص ، حين حدد للتكليف حالة خاصة أو سنا معينة .

وأما ثالثا : فإنه قد جعل فى نفس الآية من الحكمة فى أخذ هذا العهد على الناس ، أن تنقطع حجتهم فلا يقولوا : « إنا كنا عن هذا غافلين » . وواضح أنه لو كان الأمر كما قالوا ، وأن العهد قد أُخذ يوم استُخرِجوا من ظهر آدم ، لما كان ذلك قاطعا حجتهم ، بل يبقى لهم أن يقولوا : إنا كنا عن هذا غافلين ، وهم إذ ذاك يكونون جِدّ محقين فى أنهم عن ذلك العهد غافلون . فإنه إذا كان خالقهم الحكيم الرحيم قد اعتبر ذلك حجة منهم إذا هو لم يرسل اليهم الرسل مع بروزهم للوجود ؛ ومع منحهم العقل أداة النظر وآلة التفكير ، ومع بسط صحائف الكائنات

أمام أنظارهم ، وقد امتلأت بالآيات البينات والبراهين الواضحة على ما يجب لله من إجلال وتقديس ، فهل يمكن بعد هـذا أن يفهم فاهم أن الله ذا الحكمة البالغة ، والرحمة الشاملة ، يؤاخذ الناس بعهدٍ ما عرفوه ولا أدركوه ، ولا خطر لواحد منهم ببال ؟ !

اللهم إن ذلك هو بعينه تكليف ما لا يستطاع . اللهم إن ذلك هو بعينه تكليف المحال ! تعالى الله عن ذلك ، فهو الذى يمتن على عباده فى مواضع مختلفة من كتابه بسعة رحمته وسمو حكمته ، يقول عز من قائل : « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » .

وأما رابعا : فإن الآية لم يكن التعبير فيها : وإذ أخذ ربك من آدم من ظهره ؛ كما هو مقتضى هذا التأويل للآية ، بل عبارة الآية كما ترى بلفظ « بنى » مضافا الى آدم ، ثم ذكر الظهر مجموعا « من ظهورهم » مما هو صريح فى أن الأخذ ليس من آدم نفسه ، ومما هو صريح فى أن الأخذ من ظهور البنين . فالآية واضحة فى أن المراد بالأخذ هو التناسل والتوليد . وعلى العموم ، فأى عقل ذلك العقل الذى يتسع لأن تكون تلك القطرة من الماء المنحدرة من ظهر إنسان قد اجتمعت فيها بذور نسلها إلى نهاية تلك الحياة ؟ ! وكيف يخاطبنا القرآن ، وهو الكتاب المبين ، بما لا تقبله العقول ، ولا تسيغه الأفهام ؟ !

أما ما روى عن عمر بن الخطاب ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من انه سئل عن هذه الآية فقال : إن الله سبحانه خلق آدم ، ثم مسح ظهره . . . الى آخر ما بينا سابقا ، من أنه قد خرج من ظهره فريق للنار وفريق للجنة ؛ أما هذا فهو إن صح ، لا يمكن إلا أن يكون من باب التمثيل ، وهو فى ذلك واضح كل الوضوح .

إلى هنا يتبين للناظر فى وضوح ، أنه ليس من الصواب أن تؤول الآية هـذا التأويل . وعلى هذا فعلينا أن ننتحى بالآية ناحية تتفق وحكمة الله البالغة ، ورحمته الواسعة ؛ تتفق وجزالة القرآن ، وقوة أسلوبه ، وجلال معانيه .

إن الذى ينبغى أن تفسر به الآية الكريمة على ما يقع فى حدود الأصول المقررة فى الدين والمعلومة منه بالضرورة ، وعلى ما يتناسب مع حكمة الله ورحمته ، هو ما سنبديه ؟

« يتبع »

حامد محيسن

المدرس بكلية اللغة العربية

بحوث في المسائل الفقهية

تاريخ الفقه الاسلامى فى مصر

– ٢ –

١ – ما معنى تاريخ الفقه :

الفقه ، فى اللغة : العلم والفهم والفطنة ، قال تعالى : « لهم قلوب لا يفقهون بها » . وفى الحديث الشريف « من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين » .

وفى اصطلاح أهل الشرع : « العلم بالأحكام الشرعية العملية من أدلتها التفصيلية » .

فالذى يقال له الفقيه على الحقيقة ، هو العالم الفطن القادر على الاستنباط ، وهو المجتهد ؛ وأما غيره فلا يطلق عليه اسم الفقيه إلا مجازا وتوسعا إذا كان قد وصل فى العلم بالأحكام وتحصيل المسائل الى درجة يستباح معها التوسع والمجاز .

وتاريخ الفقه : هو النظر فى عهوده المختلفة ، وما طرأ عليه من أحوال ، وما اختلف عليه من رجال .

وهذا النظر يستتبع الكلام عن طريقة استنباط الفقهاء للأحكام ، وعن العوامل التى أثرت فى ذلك ، ولونت الفقه بالألوان المختلفة ؛

ويستتبع النظر فى الأسباب التى جعلت للفقه الاسلامى مكانته المرعية فى القانون والمعاملات ، حينا من الزمن ، وفى الأسباب التى انتزعت منه فيما بعد ذلك هذه السيطرة ، وأدت الى إقصائه ، تقريبا ، عن الحياة العملية ، وقصره على المسائل الشخصية والروحية !

ويستتبع النظر فى ثقافة رجال الفقه التى أثرت فى فقههم ، ومدى انتفاعهم بالرواية ، أو اعتمادهم على الرأى ؛ وبالجملة عن طريقة استنباطهم أو تفريعهم ، أو تطبيقهم للقواعد العامة على جزئياتها المتعددة ؛

ويستتبع النظر فى تآليفهم ، وأساليبها المختلفة ، فى عهود الرقى والانحطاط ، وما كان لهذه التآليف من أثر فى الإحسان الى الفقه أو الإساءة اليه . هذا هو تاريخ الفقه .

وبعض الذين يكتبون فى هذا العلم يسمونه « تاريخ التشريع » . وهذه العبارة نفسها هى العبارة الرسمية فى منهاج الدراسة بكلية الشريعة .

وقد أعجبنى تحقيق جيد لأستاذنا العلامة الشيخ محمود شلتوت فى محاضرة من محاضراته القيمة ، أثبت به أن هذا الإطلاق خطأ ينبغى أن يصلح !

ذلك أن كلمة التشريع لا تصلح هنا ، لأن التشريع هو وضع الشريعة ، فلا يسمى تشريعا إلا هـذه النصوص التى ينظر فيها الفقيه ، ويجتهـد فيها ، ويستنبط منها ، وهى نصوص الـكتاب أو السنة .

أما الاستنباط ، والاجتهاد ، والترجيح ، والتأويل ، فذلك هو الفقه . وظاهر أن الذى له أحوال ، وعهود مختلفة ، وأطوار ، ورقى وانحطاط ، ليس هو النصوص ، وإنما هو الفقه ، فهو الذى يؤرخ له إذن .

نعم : إن النصوص قد ينظر فيها من حيث الدلالة ، والنص ، والـكلية والجزئية ، والعموم ، والخصوص ، والنسخ والإحكام ، ونحو ذلك ، ولـكن ذلك من أغراض علم الأصول ، فإذا عرض لها المؤرخ للفقه ، فهو يعرض لها تبعا لا استقلالا .

وعلماء كلية الشريعة الذين ألفوا كتابها قد فطنوا لذلك ، واعتذروا عنه بالتوسع فى معنى كلمة التشريع حتى يشمل الفقه ، وفهم النصوص وغيرها . ولسنا نرى مبررا لهذا التوسع الذى يقلب المسألة ، فيجعل الغرض المقصود تابعا يندرج فى سواه ، وحقه أن يكون متبوعا يندرج ما سواه فيه !

وأكبر الظن أنهم أرادوا مجاراة الخطأ الرسمى فى المنهاج ، ومجاراة بعض المـؤلفين السابقين ، ولـكن الحق أحق أن يتبع ، فلعلهم ، ولعل كلية الشريعة ، يعملون على إصلاح هذا الخطأ !

٢ — كيف كان الفقه فى عهد الفتح :

ونقصد فتح مصر ، ولا بد من هذا الفصل لنستطيع أن نتبين فى بحثنا مدى تأثر الفقه فى مصر بالفقه فى الحجاز .

ومن المعروف أن الحركة الفقهية يومئذ كان مركزها بلاد الحجاز ، بل كان مركزها المدينة خاصة ، حيث يقيم الخليفة ، وكبار الصحابة من المشتغلين بالفقه ، والرواية والفتيا ، فما هى الطريقة التى كانت متبعة فى الفقه ، والأحـكام يومئذ ؟

هى الطريقة التى ارتضاها رسول الله صلى الله عليه وسـلم فى حياته لأصحابه : يعرضون مسائلهم على القرآن ، فان وجدوا فيه نصا أو دلالة ، وإلا عرضوها على سنة رسول الله ، فان لم يكن فيها شىء أعملوا فكرتهم مسترشدين بروح الشريعة ، ثم قضوا بما يقضى به الرأى السليم .

وهذه الطريقة هى التى وردت فى حديث معاذ بن جبل ، فقد روى أنه صلى الله عليه وسلم قال له لما بعثه الى اليمن : وكيف تصنع إذا عرض لك قضاء ؟ قال : أقضى بكتاب الله ، قال : فان لم يكن فى كتاب الله ؟ قال : فبسنة رسول الله ، قال : فان لم يكن فى سنة رسول الله ؟ قال : أجتهد

رأيي ولا آلو . قال معاذ : فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده على صدري وقال : « الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضى رسول الله » !

ومثل ذلك ما روى عن سعيد بن المسيب عن على قال : « قلت يارسول الله : الأمر ينزل بنا لم ينزل فيه القرآن ، ولم تمض فيه منك سنة ؟ قال : اجمعـوا له العالمين ، أو قال : العـابدين من المؤمنين ، فاجعلوه شورى بينكم ، ولا تقضوا فيه برأى واحد » .

تلك كانت طريقة الصحابة بالإجمال ، ولـكن كان هناك عوامل أثرت بعض الآثار فى الفقه .

(١) منهـا أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان ينهى عن الإكثار من الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم خوف الخطأ أو التحريف أو الـكذب .

روى قرظة بن كعب قال : « خرجنا نريد العراق ، فمشى معنا عمر الى حرار فتوضأ فغسل اثنتين ثم قال : أتدرون لم مشيت معكم ؟ قالوا : نعم نحن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مشيت معنا ! فقال : إنكم تأتون أهل قرية لهم دَوِىٌّ بالقرآن كدَوِىِّ النحل ، فلا تصدوهم بالأحاديث فتشغلوهم ، جوِّدوا القرآن ، وأقلوا الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، امضوا وأنا شريككم ! فلما قدم قرظة قالوا : حدثنا ، قال نهانا عمر بن الخطاب » :

وروى البخارى ومسلم عن أبى سعيد الخدرى قال « كنت جالسا فى مجلس من مجالس الأنصار ، فجاء أبو موسى فزعا ، فقالوا : ما أفزعك ؟ قال أمرنى عمر بن الخطاب أن آتيه فأتيته ، فاستأذنت ثلاثا فلم يؤذن لى ، فرجعت ، ثم قال لى عمر : ما منعك أن تأتينا ؟ فقلت : إنى أتيت فسلمت على بابك ثلاثا فلم تردوا على ، فرجعت ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا استأذن أحدكم ثلاثا فلم يؤذن له فليرجع ، قال عمر : لتأتينى على هذا الحديث بالبينة ! فقالوا : لا يقوم إلا أصغر القوم ، فقام أبو سعيد معه فشهد له ، فقال عمر لأبى موسى : إنى لم أتهمك ولـكنه الحديث عن رسول الله » !

وهذا من حذق عمر وفطنته ، فانه مع علمه بصدق أبى موسى ونزاهته ، أراده على أن يأتى بالبينة ليطمئن قلبه ، فلما أتى بهـا أفهمه أن ذلك لم يكن عن شك فيه أو تهمة ، وإنما هو الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن حقه أن ينفى عنه أيسر الشبهات ! !

وكان من نتائج ذلك أن هاب الناس عمر ، فـلم يكثروا من رواية الحديث ؛ وقد كان على مذهب عمر فى ذلك جماعة من كبار الصحابة ، منهم عبد الله بن مسعود ، ومنهم على بن أبى طالب .

فأما عبد الله بن مسعود فقد كان يقل الرواية من الحديث ، ويتورع فى الألفاظ ، ويقول فى ذلك أبو عمر الشيبانى : « كنت أجلس الى ابن مسعود حولا لا يقول قال رسول الله ، فإذا قالها استقلته الرعدة ، وقال : هكذا أو نحو ذا أو قريب من ذا ... الخ »

وأما على رضى الله عنه فقد روى عنه أنه قال : « كنت إذا سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثا نفعنى الله بما شاء أن ينفعنى به ، وكان إذا حدثنى غيره استحلفته ، فإن حلف صدقته » .

ولا شك أن هذا التشديد ، وهذا الاحتياط فى الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قد أثرا فى الفقه لهذا العهد ، بل امتد أثرهما لما بعده من عهود ، فإنه لما كثر الحديث فيما بعد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أصبح الحذاق يرجعون الى الأحاديث التى كانت تروى لعهد عمر ، فإنها أوثق . روى ابن علية عن رجاء بن أبى سلمة قال : « بلغنى أن معاوية كان يقول : عليكم من الحديث بما كان فى عهد عمر ، فإنه كان قد أخاف الناس فى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

(٢) ومنها أن عمر رضى الله عنه وأبا بكر من قبله ، كانا يتحريان أن يصلا الى ما يشبه الإجماع ، فكانا يستشيران المسلمين فيما يعرض من المسائل ، ويفسحان لهم مجال النقاش والتفاهم ثم يقضيان بما يظهر .

أخرج البغوى عن ميمون بن مهران قال : « كان أبو بكر إذا ورد عليه الخصوم نظر فى كتاب الله ... الى أن قال : فان أعياه أن يجد فيه سنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم جمع رءوس الناس وخيارهم فاستشارهم ، فان أجمع رأيهم على شىء قضى به . وكان عمر رضى الله عنه يفعل ذلك ، فان أعياه أن يجد فى القرآن والسنة نظر هل كان فيه لأبى بكر قضاء ؟ فان وجد أبا بكر قضى فيه بقضاء قضى به ، وإلا دعا رءوس الناس ، فاذا اجتمعوا على أمر قضى به » .

وروى الضبى عن أشعث عن عامر قال : « إذا اختلف الناس فى أمر فانظر كيف قضى فيه عمر ، فانه لم يكن يقضى فى أمر لم يُقض فيه قبله حتى يشاور » .

وكان من آثار ذلك قلة الخلاف بين الصحابة ، ووضع أساس فكرة الشورى ، وتقررها بين المسلمين .

(٣) ومنها أن الصحابة رضوان الله عليهم ما كانوا يكلفون أنفسهم مشقة البحث فى الفروض ووضع الأحكام لما عسى أن يحدث — فيما بعد — من الأحداث ، بل كانوا يكرهون ذلك ، ويعرضون عنه .

روى عن زيد بن ثابت أنه كان إذا استفتى فى مسألة سأل عنها ، فان قيل له وقعت أفتى فيها ، وإن قيل لم تقع قال : دعوها حتى تكون !

وكان من آثار ذلك أن قلت كمية الأحكام المستنبطة تبعا لقلة الحوادث الفعلية .

هذه خلاصة لحال الفقه فى مركزه الرئيسى وهو المدينة لعهد عمر ، وهو العهد الذى فتحت فيه مصر ، فلنترك هذا الآن ولننظر فى حالة مصر نفسها فى ذلك الوقت ، وكيف دخل اليها الفقه الاسلامى .

٣ - كيف كانت مصر قبيل الفتح :

كانت مصر قبيل الفتح الاسلامى تعيش تحت ظلال الحكم الرومانى كما يعيش الأسير المعذب ، والذليل المستعبد ، وكأنما كانت القاعدة فى حكمها هى الظلم المطلق الذى لا يعرف حدا يقف عنده ، ولا مدى ينتهى إليه .

وكانت مصر تنظر الى ذلك كله وتعانى منه ما تعانى ، من غير أن تستطيع لهذا العناء دفعا ، ولا من هذا الظلم مهربا ، لأنها كانت لا تملك أمر نفسها . ولأن هؤلاء الولاة كانت تفرضهم عليها دولة سرت فيها عوامل الفساد ، ودب اليها دبيب الشيخوخة ، وآذنت حياتها بالانقضاء والزوال ، فمن أين لهؤلاء الولاة أن يشعروا برقابة فعالة قوية تخفف من غلوائهم ، وتخفض من كبريائهم ! !

ورأت مصر المسكينة أن تصبر على هذه الحقبة من تاريخها ، وأن تستسلم لبلواها ، وتخضع للمستبدين على كره منها ، وكأنها ترقب حادثا تاريخيا يقع فيغير منهاج حياتها ، وينقذها من مفترسيها ، ويفتح لها صفحة جديدة من صفحات المجد ، ويكتب لها فصلا خالدا من فصول التاريخ . وكان الله قد أذن بذلك ، ومن سنته أن يأتى النور بعد الظلمة ، والفرج بعد الشدة ، والبعث بعد الموت والفناء .

فجاء اليها المسلمون ينسلون من الصحراء ، تسبقهم هيبتهم الحربية ، وتدعو لهم شهرتهم بالعدل ومجافاة الظلم فيما يفتحون من بلاد .

فتلقتهم مصر كما تتلقى الأرض المجدبة غيث السماء ، تلقاهم الشعب بالبشر والارتياح ، وإن تلقتهم الحكومة بالحرب والكفاح : الشعب يريد أن يخلص من أسره وينتقم من ظالميه ، والحكام يريدون أن يحافظوا على أنفسهم ، ومناصبهم ، ومتاعهم .

ودخل المسلمون مصر ، لأن الله أراد ذلك ، ولأن الشعب أراد ذلك ، ولأن الحكام بقسوتهم وسوء سياستهم قد مهدوا لذلك !

وابتدأت مصر تكتب صفحتها الجديدة الخالدة !

محمد محمد المدنى
المدرس فى كلية الشريعة

المحاماة قديما وحديثا عند الامم

أسلفنا فى عدد سابق من هذه المجلة شطرا من الكلام عن أوضاع المحاماة فى عهود مختلفة كعهد الكلدانيين والمصريين واليونانيين والرومانيين ، وكيف أن فن المحاماة بلغ من النضوج العقلى والخطابى والأخلاق مستوى تتقاصر عنه الهمم فى كثير من نواحيه فى عهدها الأخير ، وكيف أن الحذر من تطرق الوهن الى مهنة المحاماة بلغ عند الجمهورية الرومانية مستوى يثير الإعجاب ويستحث الألباب ، حتى إنهم حظروا على المحامى أن يتخذ فى مجلس القضاء نوعا من التأثير عليه إرادة تحويله عن اتجاهه أو الهيمنة على شعوره ، ليجرى القضاء على سنن واضح من العدالة ، ويتخذ الى بث الطمأنينة فى قلوب المتقاضين طريقا مستساغا .

ولذلك صدر قانون قضى على الخطباء بأن لا يتخذوا المقدمات كوسيلة لتغطية الحقائق والتأثير على القضاء فى دفاعهم ، وأن يمتنعوا عن كل قول من شأنه استجلاب الرفق بموكليهم أو إثارة الغضب ضد خصومهم ؛ كما قضى على القضاة بأن لا ينظروا ولا يقيموا وزنا لما قد يبذله من وسائل استعطافهم ، حتى لقد بلغ من حرصهم على بقاء ذلك الطابع سليما من عبث العابثين ، وقوف منادين على المتقاضين والمحامين فى أول افتتاح كل جلسة ليذكروهم بنصوص القانون ، حتى لا يستخدم أحدهم تلك الوسيلة لينال الفوز فى خصومة باطلة .

وكان من أثر هذا القانون فتور عزائم الخطباء من المحامين ، ونحى بعضهم نحو الإطالة والإسهاب ، فصدر قانون يحدد زمان المرافعة لكل خطيب ، وجعلت مدته الكبرى ثلاث ساعات ، واتخذت فى قاعة الجلسة ساعات مائية لملاحظة ذلك .

وكان من المتعارف أن لا يخرج المحامون عن جادة الكمال والتواضع ، ولا يسعوا عند القضاة ليمهدوا طريق النجاح ، وأن لا يخطبوا فى المسألة الواحدة مرتين ، وأن يمتنعوا عن الشتائم ومر الكلام ، وأن لا يضربوا بأرجلهم الأرض فى خطابهم ، وأن لا يشوشوا على القضاة وهم يتداولون ، وأن ينسحبوا من الجلسة بالهدوء والسكينة ، وأن لا يجمعوا الناس حولهم . ومن خالف منهم تلك الوصايا كان عقابه التغريم .

وكانوا غير مأجورين على عملهم ، وإنما كانوا يكافأون بارتقاء الوظائف فى الحكومة ، لأن ذلك العهد كان قليل الخصومات ، ولأن انتخاب المحامين كان من بين الأسر الثرية ، لأن تقاليد الدولة كانت تعتبر المحامى عونا للقاضى فى أداء مهمته . ولو فهمت الحقائق على أوضاعها فى عصرنا الذى نعيش فيه لكان للمحاماة مع القضاء نوع من الازدواج على الأقل . وهنا يحكى العلامة « فتحى باشا زغلول » أن أول من أخذ أجرا من موكله هو « أنطيفون » ، وتبعه الباقون .

غير أن مبدأهم لم يتغير وهو نيل الشرف، وخدمة العدالة، ومساعدة صاحب الحق على أخذه. ولما جذب حب المال بعض أولئك الخطباء، وصار الكسب ضالتهم، عابهم قرناؤهم، ولامهم الناس لوما شديدا. ولم يغب عن الروما نيين منذ عهدهم الأول أن العدالة كيان الدولة، وأن القضاء أهم أركان العمران فى الأمم، ولذلك اختار « دومولوس » وهو أول ملوك الرومان عددا من الأشراف وشكل منهم مجلس الاعيان، وجعل الباقين من أمثالهم فى العلم قوّاما على مصالح الطبقة الثانية فى الأمة. فانقسم الناس الى فريقين: فريق المتبوعين ومنهم أعضاء المجلس، وفريق التابعين. وكان التابع يحترم متبوعه كما يحترم الولد أباه والعبد سيده، وحددت واجبات كل فريق بالنسبة الى الفريق الثانى، فلم تقتصر نسبة المتبوع الى تابعه على ما عليه الآن من نسبة المحامى الى موكله، بل كانت أوسع مجالا وأكثر مهاما. فكان يجب على المتبوع أن يعين تابعه فى جميع أموره، ويستخدم فى مساعدته ما أتيح له من العزة والجاه، وما لديه من العلم والمال، وهو الذي يشد أزره فى معاملاته عند الحاجة، ويقوم بالدفاع عنه أمام القضاء. وسوف نحاول فى فرصة أخرى أن نعرض للأدوار التى قطعها فن المحاماة فى عصوره المختلفة. فالى الأعداد القادمة ؟

عباس طه

القول السديد، فى تفسير آيات النسخ والطلاق والربا من القرآن المجيد.

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ محمد الحسينى الظواهرى جولات فى تفسير الآيات الشريفة التى يكثر البحث فى موضوعها، وهو إذا عالج مسألة وفاها حقها بحثا واستقراء، ولم يدع مما يتصل بها قولا إلا أتى به ومحصه واعتصر مصاصته.

فأما مسألة النسخ فقد أفسح لها من كتابه سبعا وأربعين صفحة جاء فيها بكل ما يحسن الإلمام به عنها، وليس يخفى أن للمعتزلة والخوارج والملاحدة نظرا فيه يخالفون به أهل السنة، فأتى بكل ذلك وحتى ما كان منه بعيد المنال مما يدل على سعة الاطلاع وحب الاستيعاب.

ثم أفاض فى مسألتى الطلاق والربا على هذا النحو من الاستقراء والتفصيل، فجاء كتابه جامعا لكل ما يود محبو التوسع فى هذه المسائل أن يجدوه بين دفتى كتاب خاص.

فنشكر لفضيلة الأستاذ الموفر خدمته العلمية. لا زال موفقا فى اختياره، مسددا فى تقريراته.

تأخير بعض المقالات

تأخرت لدينا مواد، وخاصة (معرض الآراء العالمية) بسبب ضيق المقام.



بدء الصراع بين الحق والباطل ـ وقعة بدر وما سبقها من المناوشات

قلنا إنه بعد أن تمت هجرة النبي صلى الله عليه وسلم الى المدينة ، كانت حالة الحرب موجودة بين المسلمين والجاهليين . ولم يكن من الكياسة أن يتجاهلها الأولون فيتركوا لخصومهم الوقت الكافي للاستعداد لسحقهم فى دار هجرتهم ، هم ومن قبلوا دعوتهم من أهل معقلهم الجديد، فكان من أوجب واجباتهم أن لا يغفلوا طرفة عين عن العمل لإضعاف عدوهم بكل ما يستطيعون من الوسائل . ومن أفعلها بهم أن يحاصروهم من الناحية الاقتصادية ليقطعوا عنهم المدد الذى يتمكنون به من الثبات فى مكافحتهم ، وليضطروهم الى التعجيل بمنازلتهم حتى لا يتخذوا من مطاولتهم عونا لهم على حل جماعتهم .

فكان أول ما ارتآه النبي صلى الله عليه وسلم من وسائل مناهدة الجاهليين ، إيصاد طريق التجارة الخارجية فى وجوههم من ناحية الشمال . وكان من عادتهم أن يتبادلوا وسورية المحصولات والمصنوعات والمواد الأولية . ولما كان لا يمكن الوصول الى الشام إلا من طريق يثرب ، ندب رسول الله عمه حمزة بن عبد المطلب أن يقوم على رأس ثلاثين مقاتلا ليستولوا على تجارة لقريش وهى آيبة من سورية ، وكان يحرسها ثلاثمائة من رجال قريش تحت قيادة أبى جهل من كبار أعداء الدعوة الاسلامية . فصادف حمزة تجارة قريش عند ساحل البحر الأحمر من ناحية العيص ، وهى قرية من قرى المدينة ، فتصدى لقتال حماتها ، وتصاف الفريقان فحجز بينهم أحد رجالات تلك الناحية : مجدى بن عمرو الجهنى ، ومرت القافلة بسلام . فشكر النبي صلى الله عليه وسلم مجديا على ما عمل ، لقلة عدد المسلمين بالنسبة لعدد عدوهم .

ثم بلغ النبي أن تجارة لقريش فى طريقها الى الشام ، فندب عبيدة بن الحارث على رأس ثمانين مقاتلا لاعتراض تلك التجارة . فصادفها ببطن رابغ ، وهو واد قريب من البحر بين مكة والمدينة، فترامى الفريقان بالنبل ، ثم انهزم القرشيون خشية أن يكون هؤلاء الثمانون طليعة لجيش من المسلمين كمن لهم هنالك .

وخرج النبي صلى الله عليه وسلم نفسه فى السنة الثانية من الهجرة قاصدا أن يستولى على تجارة قريش فوجد القافلة قد أفلتت . وانتهز بنو ضمرة هذه الفرصة فاتفقوا مع رسول الله على التعاون فى الحرب ، ينجدهم وينجدونه وهم باقون على شركهم .

ثم خرج النبي صلى الله عليه وسلم بمائتى مقاتل عند ما بلغه أن تجارة لقريش راجعة من الشام مؤلفة من ألفين وخمسمائة بعير ، يحرسها مائة مقاتل ، تحت قيادة أمية بن خلف . فلما بلغ بواط ، وهى جبال جهة ينبع ، وجد القافلة قد مرت .

ثم خرج مرة ثالثة على رأس مائة وخمسين رجلا ، وقد بلغه أن تجارة لقريش فى طريقها الى الشام يحرسها بضعة وعشرون رجلا تحت قيادة أبى سفيان بن حرب ، فوجد القافلة قد مرت سالمة ، فعاد الى المدينة يترقب رجوعها . وقد بلغه أن فى هذه القافلة معظم أموال قريش .

فى هذه الأثناء أغار رجل من أصحاب الغارات اسمه كرز بن جابر الفهرى على سرح المدينة (١) واستاق عددا منها وهرب ، فخرج النبي صلى الله عليه وسلم يتأثره(٢) حتى بلغ سفوان ، وهو واد من بدر ، فوجد أن كرزا قد أفات . وتسمى هذه غزوة بدر الأولى .

وفى رجب من هذه السنة الثانية ، أرسل رسول الله فصيلة مؤلفة من ثمانية رجال تحت قيادة عبد الله بن جحش ، وسلم إليه كتابا مختوما وأمره أن لا يفضه إلا بعد أن يبعد عن المدينة مسيرة يومين . ففعل ما أمره به ، ووجد فى الكتاب هذه العبارة : « إذا نظرت كتابى هذا فامض حتى تنزل نخلة فترصد بها قريشا وتعلم لنا من أخبارهم » .

لا مشاحة فى أن ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم من استخدام طريقة الأوامر المختومة كان منه عملا لم يسبقه إليه قائد حربى فى جزيرة العرب ، حيث الأمية كانت ملقية بجرانها لديهم ، وربما كان عملا لم يسبق إليه فى العالم كله ، وهو يدل لأول وهلة على مبدأ التجديد الذى جعله الاسلام شعار أهله فى جميع محاولاتهم ، سواء أكانت فى حركاتهم الحربية أم فى محاولاتهم المدنية ، حتى بلغوا فى سنين معدودة الى ما لم تبلغه الأمم فى قرون كثيرة ، كما سنبينه فى مواطنه من هذه السيرة .

سار عبد الله بن جحش على رأس رجاله متوخيا تنفيذ ما أُمر به ، وقد تخلف منهم اثنان لإضلالهما بعيرا كانا يعتقبانه . فلما وصل الى مكان يقال له نخلة ، مرت به قافلة لقريش يحرسها أربعة رجال ، فحمل عليها برجاله فقتلوا واحدا وأسروا اثنين ، واستاقوا الإبل وما حملت ، ورجعوا بهم الى المدينة . فعابهم المسلمون على ما فعلوا لأن قتالهم وقع فى شهر رجب ، وهو شهر كان يحرم فيه القتال عند العرب ، وقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم : أنا ما أمرتكم بقتال فى الأشهر الحرم .

---

(١) السرح : المال السائم من ابل وغنم وبقر الخ . (٢) يتأثره أى يتتبع أثره

وعابهم اليهود ، وسلقتهم قريش بألسنة حداد . فندموا على ما فعلوا ، فأنزل الله على رسوله فى هذه الحادثة قوله تعالى : « يسألونك عن الشهر الحرام قتالٍ فيه ، قل قتالٌ فيه كبير ، وصدٌّ عن سبيل الله وكفرٌ به ، والمسجد الحرام ، وإخراجُ أهله منه أكبر عند الله ، والفتنة أكبر من القتل » فسُرِّى عنهم .

ومعنى هذه الآية : يسألونك يا محمد عن الشهر الحرام أيجوز القتال فيه ، فقل لهم القتال فى الشهر الحرام ذنب كبير ، ولكن الصد عن سبيل الله ، والكفر به ، والصد عن المسجد الحرام وإخراج أهله منه يعتبر عند الله ذنبا أكبر من ذنب القتال فى الشهر الحرام ؛ وما فيه الكافرون من الجاهلية الجهلاء أكبر هولاً من القتل الذى ارتكبته السرية التى يرأسها عبد الله بن جحش فى الشهر الحرام .

هنا لا نرى بداً من لفت الأنظار الى انتقال خطير فى فهم علاقة الحياة البشرية بالتقاليد الدينية ، افتتح به الاسلام عهدا للإصلاح الجلل الذى حمله للانسانية ، وحمى وجوده الخالد به من صدمات فادحة تقتضيها الانتقالات العقلية والاجتماعية فى خلال الأطوار المتعاقبة التى لا تبقى من الأوضاع القديمة إلا أطلالا دارسة لا يكون لها وجود إلا فى ذكريات أهلها دون أن يكون لها تأثير فى حياتهم الدنيوية .

ونحن لأجل بيان هذا الإجمال نقول :

إن الذى عابته قريش على قائد السرية النبوية من خرقه حرمة الشهر الحرام ، كان يرتكبه الجاهليون على وجه يسجل عليهم الجمود والتلاعب معا . فقد كانوا إذا اضطروا للقتال فى شهر حرام ، ارتكبوه ، ولكن تحت ستار حيلة صبيانية ، وهى أنهم كانوا يتقاتلون فى أى شهر حرام أياماً ويحرمون القتال أياما على عددها من شهر غير حرام . كما يضطر مريض للفطر أياما من رمضان ويصوم بعددها أياما من أى شهر آخر ، أداء لما فاته من الأيام المفروضة . وقد فضح الله أمر الجاهليين فى هذه الناحية بقوله تعالى : « إنما النسىء زيادة فى الكفر يُضَل به الذين كفروا ، يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله ، فيحلوا ما حرم الله ، زُين لهم سوء أعمالهم والله لا يهدى القوم الكافرين » . وهذا الذى كان يسميه الجاهليون بالنسىء هو إبدالهم أياما عادية بأيام من الأشهر الحرم كما قدمنا ، ليستمروا فى القتال والتناحر ، وهذا العمل زيادة فى الكفر يضل به الشيطان الذين كفروا ، يجعلونه حلالا عاما ، وحراما عاما آخر ، وقد زُينت لهم أعمالهم السيئة ، والله لا يهدى الكافرين .

والفرق بين الذى كان يأتيه الجاهليون وبين ما رخص فيه الله ، كبير . فالأول مبنى على الحيلة التى لا تجوز على الجاهلين ، وتنطوى على معنى التلاعب والاستخفاف ، ومثل هذا التحايل فى حياة الأمم الأدبية ، يفضى الى إباحات لا تحصى لا تبقى معها شريعة ، ولا يصان معها من العبث أصل .

ولكن الثانى وهو الترخيص فى القتال فى الشهر الحرام ، فقائم على أصول قيمة يبتنى عليها انتقال بعيد المدى لعقلية الشعوب ، ويضع حدا للجمود على الأوضاع ، ويقضى على صفة خسيسة فى النفوس ، وهى التحلل من الواجبات بحيل صبيانية .

أما الأصول التى يقوم عليها هذا الترخيص ، ولها هذا الأثر الضخم فى حياة الجماعات أدبيا واجتماعيا ، فهى :

(أولها) أن كل تحليل أو تحريم فى الدين إنما قصد به مصلحة الانسانية ، ولم يقصد به تسخيرها أو تعطيل تقدمها ، فلا يجوز التحايل لتحريم حلال أو تحليل حرام جريا مع الهوى . فاذا حدث ما يوجب إعادة النظر فى حلية ماهو حلال ، أو حرمة ما هو حرام ، ففى الدين الحق نفسه ما يغنى عن هذا التحايل . والدين فى هذا كعلم الصحة ، فإن فيه حلالا وحراما لا يجوز تعدى حدودها بالتحايل ، فإن احتيج للتحلل من أحدها فلا يجوز أن يعمد الى ذلك إلا بالاستهداء بمبادئ ذلك العلم نفسه . فان لم يوجد فيه ما يسوغ ذلك التحلل ، وجب الوقوف عند حده ، وإلا أصبح لا فائدة من وجوده .

(ثانيها) وجوب الاعتداد بالأحوال ، فان الشىء قد يكون ضروريا أو نافعا أو حسنا فى حال ، ونافلة أو ضارا أو قبيحا فى حال آخر . وأصحاب الأديان قبل الاسلام كانوا يمنعون النظر فى الأحوال فيلجأ الناس للاحتيال ، ويلجأ قادتهم إليه ، حتى أصبح الدين فى نظر الناس مع تقلب ضروب التحايلات عليه رسما لا حياة فيه .

(ثالثها) وجوب تقدير الأمور ، ومعرفة حدودها ، وتطبيقها على الأمر الذى تقضى به المصلحة الحقيقية ، لا الرغبة الخيالية ، وبنائه على الأصول المقررة ذات الأثر الذى يعم الكافة ، لا على الشهوات الشخصية التى تقوم على الأثرة أو الوحشية أو الانتقام ، بصرف النظر عن المصلحة الاجتماعية .

هذا التقدير للأمور فى الاسلام يجرى على مبادئ عامة ، ويقوم على أصول لم تملها الأهواء الشخصية ولا القومية ، ولكن أملتها مصلحة العالم الانسانى كله ؛ يشهد بهذا ما احتواه الكتاب جملةً من الوصايا بوجوب تحرى الحق مجرداً من كل صبغة ، وتطلّب المصلحة العامة وإن ناقضت المصلحة الخاصة .

(رابعها) تقديم المنفعة العالمية على الأوضاع التقليدية ، لأن الذى يتفق والمنطق هو أن كل وضع تقليدى إنما وضع فى الاسلام للمصلحة العالمية باعتبار أنه دين عام للبشر كافة ، لا أنه وضع باعتبار آخر أيا كان نوعه ، فإن الله غنى عن العالمين ، وقد جاء فى الكتاب : « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » ، وقوله : « ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ، ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم » .

فكل وضع دينى أو عمل تقليدى إنما أريد به فائدة العالم نفسه . وقد جرى الاسلام على هذا الأصل فى كل ما أمر به ونهى عنه ؛ فانه فرض الفرائض واستثنى منها المرضى ومن كانوا على سفر ، وحرم أشياء وأباحها للمضطرين اليها ، فقد قال : « فمن اضطُر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه » ، حتى أنه أباح للمسلم أن يتظاهر بالصبوء عن الاسلام تفاديا من هلاك نفسه، فقال تعالى : « إلا من اكره وقلبه مطمئن بالإيمان »

ولكن الأمر على عكس هذا لدى الأمم التى سبقت الاسلام ، فكان الأمر التقليدى لابد من القيام به ولو أتى على نفس الانسان . فوقع لهذا السبب من أهل تلك الأديان من التحايلات والمحللات ما يخجل أن يرتكبه عاقل . ولهذا السبب أيضا اعتبرت أكثر ما فى الأديان السابقة من تقاليد ، آثارا قديمة لا تقبل التطبيق على أهل هذا العصر فتُركت جملة .

ولكن الاسلام دين أنزل ليُعمل به ، ويُسار على هديه ، فكان لابد له من هذه القواعد التى تؤتى أوامره ونواهيه من المرونة ماتسمح له أن يوصى بها فى كل زمان ومكان ، وأن يطالب بها الناس ، ويهيب بهم اليها ، فى الحدود التى قررها لهم فى كتاب الله وسنة رسوله .

هذا الفهم الجديد للدين وللأوضاع المقررة فى الدين ، نقلت المسلمين من عداد الأمم التقليدية الى مصاف أمم خالصة من القيود لم توجد إلا فى القرون المتأخرة ، ولكن مع هذا الفارق العظيم ، وهو أن المسلمين على أى حال كانوا حيال التقاليد الدينية خضعوا لسلطان المبادىء الأدبية الخالدة ، مهدرين فى هذا السبيل الفوارق القومية ، والخصوصيات المحلية . فهم فى الوقت الذى يعلنون فيه أنهم يعتدُّون بالأحوال ، ويقدرون الأمور ، ويقدمون المصلحة الإنسانية على الأوضاع التقليدية ، يصرحون فيه بأنهم أشد الأمم تقيداً بالمبادىء الأدبية الخالدة ، والأصول العمرانية الحقة ، ويتشددون فى ذلك تشدداً كله خير وبركة على المجموعة البشرية .

والاسلام لم يقرر هذه المبادىء ليتحلل أهله من التقاليد المرعية فى الناحية الإيجابية فحسب ، ولكن فى الناحية السلبية أيضا ، فانه كما انتصر لعبد الله بن جحش قائد السرية فيما فعل من قتال المشركين فى الشهر الحرام ، أنكر على من لم يأخذ بالظاهر من أعمال الخصوم . فقد قتل صحابى فى الحرب رجلا نطق بكلمة الشهادة ، عندما أحيط به وأدرك أنه هالك ، فآخذه النبى صلى الله عليه وسلم على ذلك وتبرأ من عمله ، ونزل فى ذلك قرآن ينهى عن مثل فعله . فقال الصحابى فى دفاعه عن نفسه : يا رسول الله إنما قالها والسيف هاوٍ على رأسه ، ليتقى بها التلف عن نفسه . فرد عليه النبى صلى الله عليه وسلم شبهته بقوله : إننا أمرنا أن نأخذ بالظاهر والله يتولى السرائر .

فهذا الأصل الدال على أسمى ما يعرف عن العاطفة الإنسانية ، يجب أن يسجل للإسلام

فى أوجهِ صحف الدعوة الدينية . وإذا أضاف القارئ الى ذلك ما يعلمه عن الوحشيات التى استخدمها متحمسة الدينيين غير المسلمين فى مقاتلة خصومهم ، والتنكيل بمن لا يدين بدينهم ، حتى أبادوا فى فورة هذه الحماسة الجاهلية أمما برمتها ، أدرك مبلغ سمو هذا الأصل فى الاسلام ، وتنور مصدره الإلهى البحت .

وهذا الفهم الجديد للتصرف حيال التقاليد الدينية فى أمر هذه الحادثة البسيطة ، لازمَ المسلمين فى جميع تصرفاتهم الاجتماعية ، فلم يجمدوا حيال الأمور ويعضوا فيها على ما توجبه التعاليم المقررة ، بدون فهم ، ولكنهم أعملوا أفهامهم ـ بأمر من كتابهم وبسنة من رسولهم ـ فلم يتكاءدهم أمر مهما أعضل ، ولا حيَّرهم خطب مهما أشكل ، بل واجهوا الأهوال بصدور رحبة ، ووجوه طلقة ، وعقول عمرت بأرفع المبادئ ، وقلوب استنارت بأسمى الأصول ، جاعلين غرضهم الأول جعْل كلمة الله هى العليا ، وكلمة الكفر هى السفلى ، ولكن فى غير عنف يوصم صاحبه بالجهل ، ولا عسف يقف براكبه دون الغاية ، ولا وهم يفتح أمام الخاضع له أبوابا من التخيلات تورطه فيما كان فى غنى عن التورط فيه . وكذلك تفعل المبادئ القويمة إن فهمت على وجهها ، وأُخذت على حقيقتها ، وقام بتلقينها رسول جمع من عقائل الصفات الانسانية ، وخصوصيات النفسية النبوية ما جمعه النبى صلى الله عليه وسلم ؟

محمد فريد وجدى

فى الظن والفراسة

قال النبى صلى الله عليه وسلم : « إن فى كل أمة محدَّثين ، أو مروَّعين ، فان يكن فى هذه الأمة أحد فان عمر منهم » .

المحدَّث : المصيب فى رأيه كأنما حُدث بالأمر . والمروَّع : الذى يلقى الأمر فى رُوعه أى قلبه أو عقله .

وقال على رضى الله عنه : ما أضمر أحد شيئا إلا ظهر فى فلتات لسانه وصفحات وجهه .

وقيل : اعتبر بما فى قلب أخيك بعينه ، فالعين عنوان القلب . وقدنظم شاعرهذا المعنى فقال :

ألا إن عين المرء عنوان قلبه تخبر عن أسراره شاء أم أبى

هذا ولا يجوز أن ينسى أحد قوله تعالى : « إن بعض الظن إثم » ، فلا يسترسل فى التظنى ، متوهما أنه من المحدَّثين أو المروَّعين ، فيتهم الناس بما لم يفعلوا اعتداداً بأوهامه .



الولاية لله وحده :

قال الله تعالى : « اتَّبِعوا ما أُنزِلَ إليكم مِن ربكم ولا تتَّبِعوا مِن دونِهِ أولياءَ ، قليلاً ما تذكَّرون » :

بعد أن قوّى عزيمة الرسول ، ونصحه بالصبر وقوة الاحتمال ، إعداداً للقيام بمهمة الإنذار والذكرى ، بيّن هنا صيغة الإنذار العام الذى يوجهه الى الناس أجمعين ، فقال : « اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم » . وهو تحديد للتشريع الذى يجب اتباعه ولا يجوز العدول عنه ، وهو ما كان صادرا من الله ربكم ، خالقكم ومربيكم ، والعليم بنفوسكم ، فإنه قد أرسل الرسل لهدايتكم وتهذيب فطركم ، وشرع الأحكام لمصالحكم وإسعادكم فى الدنيا والآخرة .

وأما قوله : « ولا تتبعوا من دونه أولياء » فهو فى الحقيقة نهى عن اتخاذ غير الله وليا يرجع إليه الناس فى التشريع ، وفى التحليل والتحريم . وإذا كان مصدر التشريع الحق هو الولى الحق ، فلا ينبغى اتباع غيره ولا التوجه إليه . وقد قرر القرآن الكريم فى غير آية أن الولاية لله جميعا ، ونعى على من يتخذ وليا من دونه ، سواء أكان باعتقاد أن فيه سلطة غيبية ، أو فيه قداسة تحمل على اتباع آرائه وتشريعه . اقرأ إن شئت : « قل أغيرَ الله أتخذ وليا فاطِر السموات والأرض وهو يُطعِم ولا يطعَم » ، « أم اتخذوا من دونه أولياء ! فالله هو الولى » ، « الله ولىُّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور ، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور الى الظلمات » .

هذا هو الأصل الذى يوجب على الانسان أن يلتزم ما أنزل الله ، وأن يبعد بالأديان عن تصرفات الأهواء والرؤساء ، والآباء والأجداد ، فمن عبد الله بما لم يأذن به الله وإنما استحسنه هو أو استحسنه غيره وقلده فيه ، فقد اتخذ وليا من دون الله ، ومن توجه

(١) بقية البحث المنشور بهذا العنوان فى العدد السابق .

فى شدائده وكشف همومه ومغفرة ذنوبه الى أحد من خلق الله ، فقد اتخذ وليا من دون الله . ومن هذا وذاك حُرّفت الأديان ، وبدّلت الشرائع ، وانطمست معالم الحق فيها . وكذلك نشأت عبادة غير الله ، وعبد الانسان ما لا يضر ولا ينفع ، ووقع فى طريق الغى والضلال .

ثم أشار الله بعد ذلك الى أن اتخاذ الله وليا ، والبعد عن ولاية غيره ، هو ما تقضى به الدلائل الفطرية ، ولكن قليلا ما يتذكر الناس هذه الأدلة وما تقضى به من إخلاص التوحيد لله ، والرجوع بكل شىء فى السكون اليه ؛ وذلك قوله تعالى : « قليلا ما تذكرون » .

ثم قال تعالى : « وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتاً أَوْهُمْ قَائِلُونَ » :

هذا هو التخويف الذى قرن به التبليغ السابق . وإهلاك الله للأمم إنما يكون بمخالفتها للسنن التى عقد الله بها الحياة الطيبة ، والشرائع التى أنزلها تنظيما لتلك الحياة . فاذا ما ظهر الظلم فى أمة ، وفشا فيها الغش والخداع ، وانصرف الناس عن الصالح العام ، وانتهكوا حرمات الله ، اختل نظامها ، وانحلت قواها ، وفسد أمرها ، وضعفت منعتها ؛ عندئذ يبادرها الله بالإهلاك أثرا طبيعيا لطغيانها ، فيأخذها من مأمنها ، ويأتيها من حيث لا تحتسب ، بياتاً وهم نائمون ، أو نهاراً وهم قائلون : « وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون » .

وليس إهلاك الله للأمم قاصرا على الأخذ بالصيحة ، أو بالريح العاتية ، بل له نوع من الإهلاك أشد فى النفوس أثرا : ذلك هو فقد عزتها ، وذهاب قوميتها ، وذوبانها فى غيرها ، واستعباد غيرها لها ، فيذلها ، ويسلب منها خيراتها : « وقضينا الى بنى إسرائيل فى الكتاب لَتُفْسِدُنَّ فى الأرض مرتين ولتعلن علواً كبيرا ، فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولى بأس شديد . فَجَاسُوا خِلال الديار ، وكان وعداً مفعولا » .

ثم قال : « فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ » :

تقرير لطبيعة المذنب الذى أحاطت به خطيئته ، ونزل به ما يستحق من عقوبة : يندم ويتحير ، ويعترف بظلمه ، ويُنحى على نفسه باللائمة ؛ ولكن هيهات أن تنفعه ندامته ، أو تغنى عنه من الله معذرته ؛ إنما العلاج الحق هو ما رسمه الله تعالى بقوله : « إن الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » . فعلى الأمم التى وقعت من جراء ذنوبها فى استعباد غيرها لها ، وإذلاله إياها ، أن تنشط من عقالها ، وتذكى روح العمل والنشاط والغيرة فى نفوس أبنائها ، حتى تحيا حياة طيبة ، وتحفظ لنفسها العزة والكرامة .

ثم قال تعالى : « فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين . فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين . والوزن يومئذ الحق ، فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون . ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون » :

بعد أن بين أنه أنزل الكتاب على الرسول لتبليغه والإنذار به ، وأمر الأمم بالاتباع ، وحذرهم المخالفة ، وأنذرهم عاقبتها بالمثلات التى خلت ـ أكد فى هذه الآية أن الأمر ليس قاصرا على مظاهر النكال فى الدنيا التى ينتهى أمدها بانتهائها ، وإنما له شأن آخر فى يوم يفرغ فيه للثقلين ، ويتمحض الملك فيه لقوته القاهرة وسلطانه العظيم ؛ ذلك الشأن هو أنه سيسأل الجميع : يسأل الأمم التى أرسل اليها : « ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى وينذرونكم لقاء يومكم هذا » ، « ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين » ، « فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون » ؛ ويسأل الرسل الذين كلفوا الإنذار والتبليغ : « ولنسألن المرسلين » ، « يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم » ، « فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا » .

يسأل هؤلاء وهؤلاء ، إظهارا للخزى ، وإقامة للحجة ، وهو المحيط بكل شىء علما ، فلا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء : « فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين » ؛ وإنما هو العدل الحق ، يتجلى بجميع مظاهره ، وينكشف من جميع جوانبه ؛ الحق الواضح الذى لا تشوبه أبهة جاه زائل ، ولا عظمة سلطان زائف ؛ الحق السافر الذى لا يحجبه غطاء ، ولا يصانع فى إخفائه بزخرف أو رواء : « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا ، وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها ، وكفى بنا حاسبين » .

الوزن والميزان :

« فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون . ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون » :

ثقل الميزان كناية عن عظم القدر والقيمة . وخفته كناية عن الحقارة وعدم الاعتداد . ولا يكون الانسان ذا قدر وقيمة إلا بأثره الصالح ، وعمله المبرور ، وسعيه المشكور . فاذا عدم الفضائل وانغمس فى الشهوات ، وباعد بينه وبين فطرته التى خلق عليها ، وضاع منه استعدادها ، كان على العكس خفيف الميزان ، عديم القدر ، ساقط المنزلة . فالوزن تقدير من الله لأعمال عباده . هذا ما نؤمن به ، ولا نسترسل فى الخيال فنزعم أنه سيضع ميزانا له لسان

وكفتان ، وأن ما يوضع فى الميزان سيجسد أو سيوضع فى أجساد ، وأن الميزان جنسه كذا ، وصفته كذا ، وطوله كذا ، وحمولته كذا ، الى آخر ما يقال فى هذا الشأن ؛ فهذا شىء لم يبينه القرآن ، ولم ترد به سنة يصح الاعتماد عليها . وإن الله الذى هدى الإنسان الى اختراع أدق أنواع الموازين ، ومكنه بها من تقدير كل شىء حتى العواطف النفسية ، والاضطرابات الفكرية ، لأجل وأعلى أن يكون ميزان حسابه فى يوم سلطانه المطلق ذا لسان وكفتين ، ولو وسعت كفتاه الأرض والسموات .

قال تعالى : « وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ » :

لما بين الله الإنذار العام ، وخوف من عذابه ، وذكر بيوم حسابه ، عقب ذلك بتذكير الناس بنعمه عليهم ، المستوجبة لشكره والتزام طاعته : مكنهم فى الأرض ، وسخر لهم كل شىء فيها مما يكفل لهم الحياة طيبة هنية ؛ منحهم القوى والقدرة على الانتفاع بما أودع فيها من حيوان ونبات ، وماء وهواء ، ومعادن فى باطن الأرض ، وطير فى جو السماء ، وأنهار جاريات : « وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها ، وترى الفلك مواخر فيه ، ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » .

هذه أمثلة من أنواع تمكين الله لعباده فى الأرض ، وهى كلها نعم تستوجب الشكر « وإنْ تعدوا نعمة الله لا تحصوها ، إن الإنسان لظلوم كفار » ، « وقليل من عبادىَ الشكور » « قليلا ما تشكرون » . وليس الشكر أن يقول الناس بلسانهم : نشكر الله ونحمده ، وإنما الشكر الذى يطلبه الله ويعد عليه بالزيادة من نعمه ، هو : أن يذكر فلا ينسى ، وأن يعبد فلا يعصى ، وأن ينفق العبد جميع قواه فى مرضاته وخدمته .

مكان العبرة من قصة آدم وإبليس :

قال تعالى: (١) « وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ » الى آخر الآيات التى تحدثنا بهذه القصة .

هذا تذكير آخر ، يذكرنا بخلق الانسان وتصويره ، واستخلافه فى الأرض ، وتكريمه

---

(١) ذكرت هذه القصة فى سبع سور من القرآن الكريم : البقرة ، والاعراف ، والحجر ، والاسراء ، والكهف ، وطه ، وص . وفى عناصر القصة معان خلقية لها أثر سىء فى حياة الافراد والجماعات . وقد حارب القرآن هذه المعانى جميعها ، وكرر القصة كلما عرض لها أو لبعضها . ففيها من جانب إبليس : استكبار وجهل وتغرير وحسد وسوء عاقبة المتمردين ؛ وفيها من جانب آدم : نسيان وتاثر بالتغرير وحسن عاقبة التائبين . وبمثل هذا يوجه السبب فى تكرار ما كرر من القصص فى القرآن .

على جميع خلق الله : ولقد خلقناكم بخلق أبيكم آدم ، وصورناكم فأحسنا صوركم ، ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ، فسجدوا كلهم تنفيذا لأمر الله ، ولكن إبليس الذى كان ممن تناوله الأمر بالسجود فسق عن أمر ربه ، وأبى عتوا واستكبارا أن يكون مع الساجدين . ومن ذلك الحين ظهرت قوة الشر ، وجرثومة التمرد ، وعامل الإغراء على الفساد . عند ذلك سأله رب العزة ، وهو العليم بكل شيء ، عن السبب الذى منعه من السجود ، وحمله على المخالفة حينما أمره مولاه ؛ فأجاب بأنه أفضل من آدم وخير منه ؛ فاعترض بذلك على أمر الله ، ولم يرق فى نظره ، وأخذ يحاج ربه إمعانا فى الطغيان ، فقال : إن المادة التى خلقت منها هى النار وهى أشرف من المادة التى خلق منها آدم وهى الماء والطين . يخالف الله ، ويستظهر على أمره ، ويحتج فى خطابه . لما حاج ربه هكذا ، وأعلن تكبره واستخفافه ، مع اعترافه بأن الله هو الذى خلقه ، وأفاض عليه نعمة الوجود ، حكم الله بطرده من مكانة التكريم ، وإنزاله فى مكان التحقير والازدراء : « قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين » ، « قال فاخرج منها فانك رجيم . وإن عليك اللعنة الى يوم الدين » . عند ذلك أدرك إبليس أن طرده من رحمة الله كان بسبب امتناعه عن الخضوع لآدم ، فسأل ربه أن يُنظره ، ويمهله ، ويمد فى حياته الى يوم يبعثون . وقصدُه من ذلك أن تتهيأ له الفرص فيتمكن من إفساد الأمر على آدم وذريته ، بأن يوسوس لهم الوقوع فى المخالفة والعصيان كما وقع هو فيها من قبل ، فيطردوا من مكانة التكريم كما طرد هو أيضا من قبل ، فأنظره الله كما طلب ، وجعله فتنة لعباده ليميز به الخبيث من الطيب : « أحسب النَّاسُ أن يُترَكوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون » . عندئذ انكشف الغطاء عن نيته ، وما أكنه فى نفسه لآدم وذريته : « لأقعدنّ لهم صراطك المستقيم » ، ولآتينهم من جميع جهات الخير فأسدها عليهم ، وجميع جهات الشر فأفتحها لهم ، أزين لهم وأغريهم ، وأفسد عليهم أمرهم ، فيتبعون الشهوات ، ويعبدون الأهواء ، ويرتكبون المظالم ، ويسفكون الدماء ، ويفسقون عن الأوامر ، ولا تجد أكثرهم شاكرين . فأجابته الحكمة الإلهية مبرمة ما أرادت ، منفذة ما قضت .

« قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُوماً مَدْحُوراً » :

يعنى مذموماً مبعداً ؛ وسأحذرهم إياك ، وأبين لهم عداوتك ، وأذكّرهم بسابقتك ، فمن اتبعك منهم بعد ذلك فلأملأنّ جهنم منكم أجمعين . وبهذا كانت الحياة الدنيا حياة نضال وتزاحم بين الخير والشر ؛ فمن مالت روحه الى الشر واستجاب لدعوة إبليس ، فهو من حزب الشيطان « ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون » ؛ ومن مالت روحه الى الخير ، وتعوذ بالله من إبليس وشره ، فهو من حزب الله « ألا إن حزب الله هم المفلحون » ، « إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين » ، « إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون » .

قال تعالى : « ويآدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ، ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين » :

يصور الله لنا بهذه القصة الفرصة الأولى التى انتهزها إبليس فى توعده آدم وذريته ، وهى أول محنة امتحن بها الانسان ، وكانت فى علتها وعلاجها أساساً لكل محنة تقع فى الأرض بعدها : أسكن الله آدم الجنة مع زوجه ، وأباح لهما أن يأكلا منها رغدا ، وأن يتمتعا بكل ما فيها سوى شجرة معينة نهاهما عن الأكل منها . وهكذا كانت شرائع الله فى أرضه : إباحة وتحريم ، وأمر ونهى ، فأخذ إبليس يوسوس لهما بالأكل مما نهيا عنه ، ويغريهما بأنواع المغريات ، قال لهما : إن ربكما لم يحرم عليكما الأكل من هذه الشجرة إلا لأن الأكل منها يجعلكما من الملائكة أو من الخالدين ، لا يقربكما موت ولا فناء ، وبالغ فى الإغراء بالقسم على أنه لهما لمن الناصحين ، وما زال يمد لهما حبل الغرور ويقويه حتى ازلقا به الى الأكل من الشجرة المحرمة ، ودلاّهما به الى هاوية العصيان ، فأكلا منها وعصيا ربهما ؛ وهكذا كانت الحياة خداعا وتغريرا ، يخدع الفردُ الفرد ، وتخدع الأمة الأمة . نسى آدم أن الله حذّره من إبليس بقوله : « إنّ هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنّكما من الجنة فتشقى » ، ونسى كذلك أنه أبى أن يسجد له ويطيع فيه مولاه ؛ ولكن هى الطبيعة البشرية معترك الخير والشر ، ومعترك المخالفة والامتثال ، والطاعة والعصيان ؛ وعند ذلك أدركا أنهما وقعا فى المخالفة ، وتجسمت أمامهما الجريمة ، وتمثلت لهما شناعة العصيان ، وظهر لهما ما كان خفيا عليهما فى أنفسهما من النقائص والسوءات ، فوقعا فى الحيرة والاضطراب ، ماذا يقولان لله الذى كرّمهما وأحسن تصويرهما ، وأغدق عليهما بالنعيم والتمكين ؟ أخذا يلتمسان ما يستر تلك العورة التى بدت ، ويحتالان على استرداد مكانتهما عند الله ، « وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقلْ لكما إن الشيطان لكما عدو مبين » ! قرّعهما على مخالفة أمره ، وأنّبهما على اتباع الشيطان والاغترار بمعسول أمانيه . عندئذ لم يجدا بُدا من أن يعترفا بذنبهما : « قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » . فأجابتهما الحكمة الإلهية : « اهبطوا بعضكم لبعض عدو » ، يريد العداوة بين آدم وذريته من ناحية ، وبين إبليس وجنوده : دوافع الشر والفساد من ناحية أخرى ؛ وقال لهم : على هذه السنة التى علمتم من عداوة الشيطان لكما ولذريتكما ، اسكنوا الأرض ، ولكم فيها مستقر ومتاع بما هيأناه لكم الى حين ، الى يوم يبعثون ، فى الأرض تحيون وفى الأرض تموتون ، ومن الأرض تخرجون ، والى ربكم ترجعون .

وقانا الله وإياكم شر وسوسة الشيطان ، وبصّرنا بهداية القرآن ، إنه سميع مجيب ؟

محمود شلتوت

السُّنَّة

الكرم والصبر والعفاف

عن عطاء بن يزيد الليثي أن أبا سعيد أخبره « أن أناساً من الأنصار سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يسأله أحد منهم إلا أعطاه حتى نَفِد ما عنده ، فقال لهم حين نفد كل شيء أنفقَ بيديه : ما يكون عندي من خير لا أدّخره عنكم ، وإنه من يستعففْ يُعفّه الله ، ومن يتصبر يصبّره الله ، ومن يستغن يُغنه الله ، ولن تُعطَوْا عطاءً خيرا وأوسع من الصبر » . رواه البخاري .

يتعلق بشرح هذا الحديث أمور : (١) بيان معناه إجمالا . (٢) بيان شيء من كرم رسول الله صلى الله عليه وسلم . (٣) بيان معنى الصبر وما يترتب عليه من محاسن . (٤) بيان فضيلة العفة وآثارها النافعة في المجتمع الانساني .

(١) معنى الحديث ظاهر ، وحاصله أن بعض فقراء الأنصار دفعتهم الحاجة الى أن يسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعطيهم مالاً يستعينون به على قضاء حاجتهم الضرورية ، فأعطاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى فرغ ما عنده من مال يومئذ . فنفد (بفتح النون وكسر الفاء) معناه فرغ . فقال لهم الرسول صلى الله عليه وسلم بعد ذلك : إنني لا أمنع عنكم مالاً أملكه ، فما يكون عندي من خير (أي مال) لا أدخره عنكم ولا أجعله ذخيرة لغيركم من أهل أو غيرهم . ثم أراد صلى الله عليه وسلم أن يذهب بهم الى معنى السعادة الحقيقية ، وما ينبغي أن يكون عليه الانسان من الصفات الممدوحة عند النوائب والمحن ، فقال لهم : « وإنه من يستعفف يعفه الله ، ومن يتصبر يصبّره الله ، ومن يستغن يغنه الله » الخ .

وهذا الحديث وأمثاله من الأحاديث التي تحث على الفضائل ومكارم الأخلاق ، يدل دلالة واضحة على ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم من العناية بتهذيب أمته وتقويم أخلاقها ، وحثها على سلوك سبيل الفضائل في كل شأن من شئونها . فلو أن المسلمين علموا بما جاءهم به رسول الله صلى الله عليه وسلم على وجهه الصحيح وفهموه حقا ، وعملوا بما أمرهم به ، واجتنبوا ما نهاهم عنه ، لكانوا أسعد الأمم حظا ، وأجلهم قدرا في كل زمان ومكان .

يحث هذا الحديث على ثلاث خصال من مكارم الأخلاق ومحاسن الصفات ، وهى : الكرم ، والصبر على المكاره ، والعفة . وبديهى أن هذه الصفات من الصفات النفسية القوية التى يدور عليها صلاح الأفراد والجماعات . وقد آن للمسلمين أن يستيقظوا من نومهم العميق ، ويتدبروا ما كان عليه أسلافهم من مجد ومنعة وقوة بسبب استمساكهم بآداب دينهم وتعاليمه القويمة ، وطرحهم الشهوات الفاسدة جانبا . وإن هذا الزمان وما فيه من حادثات لهو من أكبر العوامل التى تبعثهم على اليقظة ، وتحثهم على الاستمساك بفضائل دينهم ، والاقتداء بأسلافهم الأطهار ، لعلهم أن يظفروا ببعض ما ظفر به هؤلاء الأسلاف من عزة ومجد . نعم قد آن لهم أن يحاربوا شهواتهم الفاسدة ، ويقلعوا عما فيه ضررهم وهوانهم من الاسترسال فى الشره والشح والجزع ، وتقديم ما تقتضيه الشهوة على ما تقتضيه العزة والكرامة . وليعلموا أن كرامة النفس وعزتها هو أنفس ما يحرص عليه الأبرار ، وأعز ما يتصف به الأخيار ، وأجل تراث يتركونه لأمتهم وذريتهم من بعد « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره »

(٢) أما كرم رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه لاحدّ له فيوصف ، ولا نهاية له فيعرف ، بل كان صلى الله عليه وسلم أجود من الريح المرسلة ، كما ورد فى بعض الأحاديث . وحدّ الكرم فى الشريعة الاسلامية هو : أن ينفق الانسان ما تقتضيه الواجبات والحقوق ، وتتطلبه حالته المالية من وسائل البر وأعمال الخير النافعة للمجتمع الانسانى . وقد جعلت الشريعة الاسلامية للإنفاق حدا لا ينبغى لأحد أن يتعداه حتى يتيسر له قطع مراحل الحياة آمنا مطمئنا ، قادرا على أداء الأعمال المطلوبة منه بدون انقطاع ، فلا يكون شحيحا ، ولا يكون مبذرا . قال تعالى : « والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يَقْتروا وكان بين ذلك قواما » . وهذا ميزان عادل صالح للبيئة فى كل حين، لأن الانسان إذا بخل حمله بخله على الكف عن أداء الحقوق والواجبات ، وإذا أسرف نفد ماله وعجز عن أداء تلك الحقوق . فالنتيجة فى كل حال واحدة وهى عدم أداء الحقوق والواجبات إما عاجلا أو آجلا . نعم إن البخيل أشد مقتا وأرذل خلقا وأخش أثرا من المبذر الذى ينفق ماله فى أعمال البر ، ولكن ينبغى للعاقل ألا يحيد عن ميزان الشرع القويم ، فإن من حاد عنه ندم أشد الندم ، كما قال تعالى : « ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعدَ ملوما محسورا » .

وقد يقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو نعم القدوة فى أقواله وأفعاله ، وقد ورد فى صحيح مسلم وغيره « أنه صلى الله عليه وسلم لم يُسأل شيئا إلا أعطاه ، فأتاه رجل فسأله فأمر له بغنم كثير ملأت بين جبلين ، فرجع الى قومه فقال : ياقوم أسلموا فإن محمدا يعطى عطاء من لا يخشى الفاقة » ، والحديث الذى معنا يدل على أنه عليه السلام قد أنفق جميع ما عنده ؛ وهذا فى ظاهره يتنافى مع ظاهر الآية ، ويتنافى مع القانون الشرعى وهو عدم التبذير والإسراف الموجب لنفاد المال والعجز عن أداء الحقوق والواجبات .

والجواب : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم متصل بالوحى ، وله سلطان على النفوس لا حدّ له ، فهو يعلم حق العلم أن إنفاقه للمال لا يعجزه فى وقت من الأوقات أو فى حال من الأحوال ، فهو دائما قادر على الحصول على المال من طريق شريف ممدوح ، وقد كانت له صلى الله عليه وسلم حالة خاصة ، وهى توسيع نطاق الاسلام ، وتكثير سواد المسلمين ، كما هو واضح فى هذا الحديث ، فإن الرجل قد أثر فيه بذل المال أحسن الأثر وأمر قومه بالاسلام ؛ وهذه هى الغاية العظمى التى يتوخاها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما كان فى عمله هذا مبذرا ، بل كان آمنا من شر الفاقة والاحتياج ، كما قال الأعرابى لقومه : إن محمدا يعطى عطاء من لا يخشى الفاقة . وكان على رضى الله عنه إذا وصف النبي صلى الله عليه وسلم قال : « كان أجود الناس كفا ، وأوسع الناس صدرا ، وأصدق الناس لهجة ، وأوفاهم ذمة ، وألينهم عريكة ، وأكرمهم عشيرة ؛ من رآه بديهة هابه ، ومن خالطه معرفة أحبه » الخ . فليت المسلمين يقتدون برسولهم الكريم فى أقوالهم وأعمالهم ليكونوا من المفلحين .

(٣) وأما الصبر فهو من أجل صفات النفس وأعظمها قدرا . وكفى به مدحا أن الله سبحانه قد مدحه فى أكثر من سبعين موضعا من القرآن الكريم . وهو : حبس النفس عن الجزع ، ومنعها عن محارم الله ، وإلزامها بأداء فرائضه . فمن اتصف بذلك كان صابرا . وينقسم الصبر باعتبار ما يتعلق به من الأمور الى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : الصبر على طاعة الله تعالى ، ويشتمل هذا القسم على أداء ما أمر به الله تعالى من واجبات ، واجتناب ما نهى عنه من محرمات . ومن ذلك الثبات أمام الأعداء فى الحروب ، فمن فقد الصبر فى هذا الموطن فإنه يكون جبانا مرذولا فى نظر الشريعة الاسلامية . ولذا كان من أشد الكبائر فى نظر الدين الفرار من أمام الأعداء . قال تعالى : « يأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » . ومعنى « اصبروا » : امنعوا أنفسكم من الجزع وألزموها احتمال المكروه . ومعنى « وصابروا » : غالبوا أعداءكم فى الصبر على شدائد الحروب وويلاتها ، ولا تكونوا أقل صبرا منهم وثباتا . ومعنى « ورابطوا » : أقيموا فى الثغور مترصدين مستعدين للأعداء . فهذه الآية الكريمة صريحة فى كل ما يجب على الأمة الاسلامية أن تفعله بإزاء أعدائها الذين يريدون انتهاك حرماتها . فقد أمرهم الله بالصبر عن شهواتهم ولذاتهم فى سبيل الذود عن كرامتهم ، وأمرهم بأن يصابروا أعداءهم بحيث يكونون دائما أكثر منهم صبرا وجلدا ، وأن يحافظوا على ثغورهم ولا يتركوها مفتوحة لأعدائهم . ذلك هو نص كتاب الله الذى لا ينفك المسلمون عن تلاوته ، فياليتهم يتدبرونه حقا ، ويعملون بما فيه بصدق عزيمة ورباطة جأش .

القسم الثانى : الصبر على المصيبة . وهذا القسم يتناول الصبر على فقد الأحباب ، ويتناول

الصبر على البؤس والفقر وضياع الأموال ، كما يتناول الصبر على لقاء الأعداء فى ميادين القتال وغيرها ، والصبر على المرض واحتمال الآلام وغير ذلك . وقد أثنى الله تعالى على الصابرين عند المصائب وأعدّ لهم جزاء حسنا وأجرا كبيرا . قال تعالى : « والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » . ومعنى البأساء : الفقر . ومعنى الضراء : المرض . وقوله تعالى : « وحين البأس » يعنى عند القتال ومنازلة الأعداء . فمعنى هذه الآية الكريمة : إننى أمدح الصابرين فى حال الفقر والمرض ، وحين قتال الأعداء ، وهؤلاء هم الصادقون فى إيمانهم بربهم ، الموقنون باليوم الآخر ، فلا يبالون بحادثات الدنيا ، ولا يرهبون عدوا ، ولا يخافون بطش أحد .

القسم الثالث : الصبر على ترك الشهوات التى نهى الله عنها . وهذا القسم لازم لسعادة الانسان فى دنياه وآخرته ، فان الله سبحانه قد نهى عباده عن الفحشاء والمنكر ليعيشوا فى هذه الحياة الدنيا آمنين مطمئنين ، فلا ينال أحدهم من عرض أخيه بالقول والفعل ، ولا يعتدى أحدهم على غيره فى ماله وبدنه ، ولا تغرهم الحياة الدنيا وزينتها فيسعون فى الأرض فسادا من أجل الحصول على لذاتها الفانية وشهواتها الفاسدة . فمن يصبر على ضبط لسانه عن الحرام فلا يغتاب ولا ينم ، ولا يقذف أحدا ، ولا يشهد الزور ولا ينطق بالفحش ، ولا يكذب ولا يساعد بقوله ظالما ، ولا يجادل بالباطل ، الى غير ذلك من آفات اللسان ، فإنه بذلك يكون قد صبر عن ارتكاب معاصى اللسان . ومن يصبر على حفظ فرجه فقد صبر على شهوة الفرج المحرمة . ومن صبر على ما لا يملكه من اللذات والشهوات فقد نجا من ألم الحسد والحقد وغير ذلك من الآفات المهلكات .

(٤) أما العفة : فهى صفة من صفات النفس الفاضلة ؛ وهى عبارة عن التوسط بين طرفى الإفراط والتفريط فى الشهوة والغضب ، فلا يشتهى شيئا حرمه الله تعالى ، وإن وجد فى نفسه باعثا لهذه الشهوة فانه يجب عليه مقاومته ودفعه بكل ما يستطيع من طول وحول ، لأن الله تعالى قد أباح له من الشهوات ما فيه الكفاية ، فلا يحل له أن يعتدى على غيره بعوامل الشهوة التى ليست من حقه ، وكذلك لا يغضب إلا عند موجبات الغضب التى أبانها له الدين ، فلا يؤذى أحدا بقول أو عمل بدافع الغضب بدون حق .

والله تعالى يوفق المسلمين الى العمل بقواعد دينهم الحكيمة ، وينقذهم مما هم فيه من فوضى الشهوات والأخلاق ، إنه سميع الدعاء ؟

عبد الرحمن الجزيرى

دراسات في القرآن الكريم

المجاز والكناية فى كتاب الله (١)

فى الآية السابقة على هذه الآية ، أعنى قوله تعالى : « وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون » ، قد ذكّر بنى إسرائيل بالعهد الذى وثّقه معهم يوم رفع الجبل فوقهم بأن يأخذوا بما فى الكتاب المنزل على موسى صلى الله عليه وسلم ، وأن يذكروا دائما ما فيه ويتفهموه ، لما فى الأخذ بما فيه إذعان بنبوة خاتم النبيين ، وإيمان برسالة سيد المرسلين ، سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم . ولما كان العهد الذى ذكروا به فى الآية السابقة قد أخذ فى ظل آية مؤقتة ، ووثق تحت حجة هى بنت حينها ، وكان مقتضى العهد إنما هو العمل بما فى الكتاب ، وما فى الكتاب قد تخونه الأهواء وتعبث به الأغراض بالتبديل والتحريف ، كما حدثنا القرآن ، فكان يكون من تعللاتهم أنا لم نشهد تلك الآية التى كان الاقتناع بحقية ذلك العهد فى ظلها ، والتى كانت هى الدافعَ الى قوة الاستمساك به ، ولم يصلنا الكتاب إلا على هذا الوجه الذى لا يلزمنا بالاستجابة الى الدعوة المحمدية ، لما كان كذلك ، أخذ القرآن يذكرهم بعهدٍ آيتُه لا تنسخ ، بل هى ثابتة على مدى الأيام ، ومقتضاه أصل من أصول الشرائع ، وهى الاعتراف بربوبية الخالق ، ذلك الأصل الذى هو غريزة فى النفوس ، وهو فطرة الله التى فطر الناس عليها . هذا من ناحية .

ومن ناحية أخرى : لما كان من طبيعة من غلّفت الشهوات قلوبهم ، وأعمت الأهواء أبصارهم ، وأصمّت الأغراض آذانهم ، أن يتلمسوا فى ساحة الحق القتامَ وإن كانت نيّرة نقية ، وأن يتحسسوا فى أفقه الغيومَ وإن كان صحواً صافيا ؛ لما كان من شأنهم أن يستمسكوا بالأباطيل ، ويتعللوا بواهن الشبه ، فكان لبنى إسرائيل أن يقولوا فى مقابلة تلك الآية الكريمة : إننا لا نعرف هذا العهد ، ولا هو قد أخذ علينا ، ولا وثق معنا ، وإنما أخذ على أسلافنا ، فلا تؤاخذنا بما فعل آباؤنا ، فإنك قلت وقولك الحق : « ولا تزر وازرة وزر أخرى » .

(١) بقية البحث المنشور بهذا العنوان فى العدد السابق .

لما كان لبنى إسرائيل أن يتعللوا بتلك الشبهة ، فقد أراد الله تعالى أن يقتلع تعللاتهم ، ويستأصل شبهاتهم ، ويقطع من أيديهم كل مستمسك ، فذكّرهم بذلك العهد العام الشامل الذى لم يختص به جيل دون جيل ، ولا شعب دون شعب ، ولا الآباء دون الأبناء ، بل كل جيل يجدّ هو مأخوذ عليهم ، وموثق معهم ؛ ذلك العهد العام الشامل هو المذكور فى قوله تعالى : « وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ . . » الآية . وهذا العهد إنما ينعقد بين الناس وما أودعهم من عقول أقدرها مانحها على النظر والتفكير والتدبر والاستنتاج ، وبين ما أقام فى السموات والأرض وما بينهما من حجة واضحة وبرهان ناصع ، وما كتب فى أكوانه من آيات بينات ، وأدلة نيرات ، على أنه لا إله إلا هو الواحد القهار ؛ غير أنه قد سلك فى ذلك سبيل التمثيل على حد الاستعارة ، فأبرز ما بين العقول والكائنات من استعداد العقول القوىّ للنظر والتدبر ، واستخلاص الأدلة واستنتاج الآيات ، ومن وضوح ما فى الكون من أدلة قدرته ، وبراهين علمه وحكمته ، وآيات علوه وعزته ؛ أبرز ذلك فى صورة التقاول والمكالمة ، لينبه بذلك الى قوة ما فى العقول من الاستعداد للتفهم ، وقوة ما فى الكائنات من الاستعداد للانفهام ؛ فكأن آيات الله القائمة فى الأرض والسماء ، وما بينهما من كوكب ثابت وآخر سيار ، ومن كوكب ساطع مضىء ، وآخر دونه فى ذلك ، من زروع وأشجار ، وجبال وأنهار ، الى غير ذلك من جماد وحيوان ، وجامد وسائل ؛ كأن هذا يستنطق العقول بالاعتراف بربوبية بارئها ومحكمها ، وكأن العقول إزاء ذلك تنطق فى بيان معترفة بمبدعها ومودعها .

هذا هو ما ينبغى أن تحمل عليه الآية الكريمة ، حتى يقع فى حدود ما قرره الاسلام من قواعد وأصول ، وتساير المعلوم من الدين علما ضروريا .

وواضح : أنه لا يغيّر من هذا الاتجاه الذى اتجهناه بالآية ، أن نعتبر الآيات التى تخاطب عقول البشر وتقتضيهم الاعتراف بالربوبية ، هى آيات تطوراتهم من ظهور الآباء الى أرحام الأمهات ، وتطوراتهم فى أرحام الأمهات الى خروجهم من بطون أمهاتهم ، الى بلوغهم أشدّهم ؛ إذ فى ذلك من مظاهر الربوبية ، والتعهد والرعاية ، وآيات القدرة ، ما هو جلى واضح ، مثلهُ يكفى لمن نظر وتدبر أن يوحد الله بالعبودية ، وأن يفرده بالإعظام والإجلال ؛ ويكون إيثار تذكيرهم بهذا النوع من الآيات دون ما أقام من آيات فى الأرض والسماء وما بينهما ، يكون إيثار هذا النوع لما أن مظاهر التعهد والتربية ، وآثار الرأفة والرحمة فيها ، أجلى وأوضح ، لأنه تعهد ورحمة حين لا يستطيع أب لهم أو أم أن يجلب نحوهم نفعاً ، وأن يدفع عنهم ضرا ، وحين هم كذلك لا يقدرون لأنفسهم على شىء مّا من خير يجلبونه أو شر يدفعونه ، فلا جرم أن كان معنى الربوبية فى ذلك أجل وأوفر ، وأعظم وأكثر ؛ ولا جرم أن كان أقوى استدعاء لهم أن يعترفوا له تعالى بالربوبية دون سواه .

والى هنا ، قد يدور بالخلد سؤال : إذا كان هـذا هو المعنى ، وجرينا على أن الآيات هى آيات الأرض والسماء ، لا آيات التطورات فى ظهور الآباء وأرحام الأمهات ، فلِمَ سلك له هذا الأسلوب ، وقد كان يمكن أن يؤدى بهذه العبارة : « وإذ أشهد ربك الناس على أنفسهم ألست بربكم ؟ قالوا بلى » ؟

وإنا إزاء هـذا السؤال لا بد لنا أن نوضح السر فى العـدول عن تلك العبارة الى العبارة التى جاء بها القرآن الكريم ، حتى يتبين لك ما فى الكتاب من دقة ، وما فى ثناياه من روائع معان هى التى أعجزت أرباب البلاغة وفرسان البيان ، وهى التى أعيت الرائضين شوامس القول ، والمذللين جوامح الكلام : ذلك أن الله عز وجل قد أراد أن يبين ماله على الناس من فضل كبير ، وما له بهم من رحمة واسعة ، وما هو عليه من عدل وحكمة ، مما اقتضى أن يمنحهم الاستعداد لإدراك ربوبيته ، واستحقاقه أن يعبـدوه ويقدسوه ، من أول أطوار وجودهم ، ومبدأ تهيئتهم للإبراز فى هذا الوجود ، فهم من ساعة أخذ بذرتهم من ظهور الآباء وإيداعها أرحام الأمهات وهم على ذلك الاستعداد الذى منحهم إياه ربهم ليدركوا به ما أقام فى الآفاق وفى أنفسهم من آيات وحدانيته وأدلة ربوبيته ؛ فهم بذلك لم يولدوا ولم يبرزوا من ظلمة الأرحام الى نور هذه الحياة إلا وهم على فطرة سليمة هى فطرة الله التى فطر الناس عليها ، كما قال الرسول الكريم : « كل مولود يولد على الفطرة ولكن أبواه يهوّدانه أو ينصّرانه » ، أعنى أن الله تعالى يريد أن يقول للناس : إنى لم أبرزكم الى هـذا الوجود إلا وأنتم على فطرة قـد زاوجتُ بينها وبين ما فى الأكوان من دلائل وآيات ، بما أودعته فيكم من الاستعداد للنظر والاستنتاج ، وما عليه الكون من وضوح آياته للناظرين ، وجلاء دلائله للمتدبرين ؛ وإذن فما هو عذركم الذى به تعتذرون ؟ وما هى شبهتكم التى بها تدفعون ؟ ما دمتم لم تحلوا هذا الوجودَ إلا ونور الهدى والحق بين أيديكم وبأيمانكم ؛ أما تلويث فطركم بتهويد الآباء والأمهات وتنصيرهم ، أمّا ما نسجته خرافات بيئات نشـأتم فيها من أغشية دون الحق الواضح الصريح ؛ أما ما بنته العقائد الباطلة التى حملتها أدمغة فاسدة من أوساط عشتم فيها ؛ أما ذلك كله فليس بمقيم لكم حجة ، ولا بيان لكم برهانا ، ولا معفيكم من عذاب الله ، ولم يبق لكم من الحجة أن تقولوا : إنا كنا عن هـذا غافلين ؛ فقد كان ينهض هذا حجة لو لم تمنحوا ذلك الاستعداد من أول أطوار وجودكم ، ولو لم تبرزوا لهذا الوجود وأنتم بتلك الفطرة النقية ، وبهذا النور الساطع المضىء أمامكم صحيفة الكون وما فيها من شواهـد وحدانيته وآيات ربوبيته ، فلو نظرتم وتدبرتم ، وأدمتم استعمال ذلك المنظار الربانى وتلك المنحة الإلهيـة ، ما تراكمت عليه أتربة الأباطيل والترّهات ، ولأحاطه قتام التقليـد والعادات من كل ما حجب عنكم نور الحق ، وأضلكم عن سواء السبيل ؛ كما أنه ليس لكم من الحجة أن تقولوا : إنما أشرك آباؤنا من

قبل ، وكنا ذرية من بعدهم ؛ فقد كان ينهض ذلك حجة لو أننا أهملناكم للآباء ، ولم نخرجكم من بطون أمهاتكم ونور الحق يحوطكم ، ولو لم نبسط أمام عيونكم صحيفة العهد من أرض وسماء تقرأ فى ظلمة الليل كما تقرأ فى وضح النهار ، فكان عليكم أن تنظروا وأن تتدبروا ، وآيات الله فى كونه ملحة فى دعوتكم الى النظر والتدبر ، وبالنظر والتدبر تمزق هذه الأغشية ، وتهدم تلك الحواجز ، وتقشع تلك الغيوم .

هذا هو السر فى أن عدل القرآن عن التعبير بقوله : وإذ أشهد ربك الناس على أنفسهم ، الى التعبير بما جاء عليه القرآن الكريم .

هذا ، وإن هناك الى ذلك سرًّا آخر لذلك العدول ، وهو أنه لما كان الأخذ بمقتضيات العهود ، والاستمساك بالمواثيق إنما يكون مكفولا ومضمونا إذا اقتنعت النفوس بحقيّته وأن المصلحة والخير فى العمل به ، إنما يكون مضمونا أو أقرب الى التحقق إذا آمنت به القلوب عن حجة ودليل ؛ لما كان كذلك كان من حكمة الله البالغة ألا يوثق مع عباده عهدا إلا كان إبرامه فى ظل آية من آيات قدرته ، وشاهد من شواهد تفرده بالتصرف ووحدانيته فى الكمال ، حتى لا يكون لهم إذا هم نقضوا عهدا بعد ميثاقه أن يقولوا تعللا واعتذارا : إنا كنا على التزام ذلك العهد مكرهين ؛ إذ تكون حجتهم حينئذ مدحوضة ما داموا قد التزموه عن اقتناع بالدليل . لهذا تراه فى الآية السابقة قد بيّن أنه لم يأخذ على بنى إسرائيل العهد الذى التزموا فيه الأخذ بما أوتوا من شرائع عن طريق رسولهم موسى صلى الله عليه وسلم إلا فى ظل آية من آيات قدرته ، وهى رفع الجبل فوقهم كأنه ظلة ؛ ولما ذكّرهم به على لسان رسولنا الكريم ذكّرهم كذلك بالآية التى وُثق العهد تحت لوائها ؛ فهو جلت حكمته يعلم أن لا قهر على عقيدة ولا إكراه فى دين .

ومن هذا تدرك السر فى ذكر الأخذ من الظهور قبل ذكر العهد فى قوله : « ألست بربكم » : فهو قد أراد الإرشاد الى أن العهد الذى يجب أن يوثق بين عقول البشر وبين ما فى الكون من آيات ، لم يكلفوا به إلا بعد تذكيرهم بما سبق زمن التكليف من تلك التطورات العجيبة من حين أخذوا من ظهور الآباء فأودعوا أرحام الأمهات ؛ ثم صارت النطفة علقة ، والعلقة مضغة ، الى آخر التطورات التى تتقدم الاستعداد للنظر والتفكير ؛ وفى ذلك من آيات القدرة البينة ، وآثار التعهد والتربية ، ومظاهر الرحمة ، ما يستدعى منهم فى قوة وإلحاح أن يستمسكوا بذلك العهد الذى توحيه آيات الله فى الكون على ما منحوه من عقول .

والى هنا قد فرغتُ مما أردت أن أؤكد به تقرير المعنى الذى يجب أن تفسر به الآية الكريمة ، وأن أبيّن بطلان ما عداه من التأويلات .

والى القارئ بعد هـذا دقائق أخرى فى الآيات مما كان به القران معجزا ، ومما كان به مالـكا للنفوس ، مستوليا على العقول ، موجهاً لها الى الخير والحق :

يقول عز من قائل : « وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم » فيذكر مبدأين للأخذ على طريقة الإبدال : فيبدل قوله : « من ظهورهم » من قوله : « من بنى آدم » ، وقد كان يكفى أحدهما لأداء المعنى ؛ إلا أنك تدرك جلال القرآن وروعته حين تقارن بين الإتيان بهما وبين الاقتصار على أحدهما ؛ فانه لو اقتصر على قوله : « وإذ أخذ ربك من بنى آدم ذريتهم » لما كان فى هذا لفت الأذهان الى مبدأ تهيئة مادتهم للإيجاد ، ولا الى التطورات التى اجتازوها قبل خروجهم من بطون أمهاتهم الى هذا الوجود ، مع أن ذلك مقصود إليه لينبههم الى أنه قد بذرهم لأول مابذرهم فى صلاحية واستعداد للتدبر والنظر حتى تنقطع الحجة التى كان يصح لهم أن يحتجوا بها لو كان قـد منحهم الاستعداد متأخرا ، لجاء بعد ما برزوا لهذا الوجود ، وبعد ما يكونون قـد تأثروا بتقليد الآباء وتقاليد البيئات ؛ نعم لا يكون فى ذلك الاقتصار لفت الى ذلك ، مع إيهامه أنه أخذ كما يؤخذ من المرء ماله ، أو تؤخذ منه أمتعنه ؛ وليس بلافت الى ذلك ، ولا مبعد لذلك الوهم إلا أن يبدل منه قوله : « من ظهورهم » . كما أنك تدرك جلال القرآن حين تقتصر على قوله : « وإذ أخذ ربك من ظهور بنى آدم ذريتهم » لما يوجبه ذلك الاقتصار من تقصير فى نسبة الأبناء الى الآباء ، ويكون التعبير الى ذلك موهما أنه أخذ كأخذ جزء من عضو خاص . فلتمام النسبة ودفع الإيهام جاء بالمبدأ الأول ، ولما قدمنا من التوجيه جاء بالمبدأ الثانى .

وإليك دقيقة أخرى : يقول تعالى : « ألست بربكم » ؟ ولم يقل : « أ أنا ربكم » ؟ مع أنه هو الذى يظهر لنا ، بناء على ما يقرره علماء التفسير من أن المقرر به فى مثل ذلك هو ما بعد النفى ؛ لم يقل عز وجل : « أ أنا ربكم » لأن الذى يتتبع أساليب اللغة بدقة يجد أن المقرر به دائما هو ما يوافق الحـال التى يـكون عليها الشخص . تقول للرجل قـد أحسنت إليه ثم هو يسىء إليك : ألم أحسن إليك ؟ ! لأن صنيعه من إساءة وعدم إحسان إنما يتفق مع عـدم الاحسان منك اليه . وإنما كان هذا لأن الغرض هو تنبيهه الى الحالة التى هو عليها ليقلع عنها لأنه لا يستطيع أن يواجه سائله بأنه لم يحسن اليه ، لـكن يستطيع أن يواجه سائله بأنه أحسن اليه حين يسأله عن الإحسان ؛ غير أنه لا يـكون فى ذلك تنبيه ، ولا يتوجه به إنـكار ولا ملام .

إذا عرفت ذلك ، فلنرجع الى الآية نجـدها جارية على هـذا الأسلوب الدقيق ، ويكون المقرر به هو المنفى لا مابعد النفى كما يقوله المفسرون . ألا ترى أن المطرد من أحوال المجموعة البشرية هو الجحد والـكفران ؛ والجحد والـكفران هو ما يتفق مع عدم الاعتراف بالربوبية

مع ما أسبغ عليهم من نعمة وأدرّ عليهم من رحمة ، ومع ما أقام لهم فى أنفسهم وفى عوالم الكون الأخرى من آيات ، ومن كل ما يقتضيهم فى قوة الاعتراف بالربوبية ! وبهذا فهم إنما يسألون عن الحالة التى هم عليها حتى إذا فطنوا لها علموا أنهم على باطل واضح لا يسعهم أن يجيبوا بإيجابه ، ولا يستطيعون أن يواجهوا سائلهم بالاستقرار عليه .

وإليك دقيقة ثالثة : إنك تعلم أن أول ما يوفّر للكلام صفة البلاغة ، ويحله منها فى المقام الأول : أن يأخذ بذهنك الى المعنى فى طريق نيّرة مستقيمة غير معوجة ، من غير بطء ولا توان ؛ ومما هو فى تلك المرتبة من أسباب توفير البلاغة وجزالة الأسلوب، أن يسلك فى أداء المعنى سبيل الإيجاز ليكون أسرع فى الأداء ما دام الإيجاز لا يخل أقل إخلال بالغرض المقصود أداؤه ؛ من ذلك تدرك السر العجيب فى أن حُكى جوابُ الاستفهام فى « ألست بربكم » بقوله : « قالوا بلى » دون أن يقول : « قالوا أنت ربنا » ، إذ لو جاء بالجواب « بأنت ربنا » لكان من الاحتمالات أن يغفل الذهن عن ارتباطه بالاستفهام ، وأنه جواب له ؛ وفى ذلك وقفة بالذهن مهما كانت قليلة عن الوصول الى المراد . أما لفظة « بلى » فهى لا تكون إلا جوابا ، فلا يمكن للذهن أن يقف عن إدراك الارتباط بينها وبين الاستفهام السابق . هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى ، فإن فى لفظة « بلى » إيجازا مشيرا الى أنهم حريصون على المسارعة بإظهار عقيدتهم وأداء اعترافهم بالربوبية . وإلى هنا ، قد يقال : إنه وإن كان فى ذلك تمام الارتباط والمسارعة بالإيجاز الى الأداء ، لكن بقى أن لتفصيل الاعتراف من المزية ما ليس للإجمال ؛ وإنا نقول : لهذا ترى القرآن الكريم قد جاء بعد ذلك بقوله : « شهدنا » الذى فيه تفصيل الاعتراف ، ولكنه قد جاء بهذا التفصيل بعد أن جاء بالأول الذى قطع به كل احتمال ، وسارع به فى أداء المعنى لما فيه من إيجاز .

وإلى هنا ، وعلى ذلك القدر ، أقتصر ؛ فإنه ليس لأحد أن يطمع فى بيان كل ما تحتويه آيات القرآن الكريم من دقائق وعجائب ؛ فهو كلام رب العالمين ، خالق القوى ، ومكوّن القُدَر ؟

حامد محيسن
المدرس بكلية اللغة العربية

الكمال فى العقل

روى أن جبريل عليه السلام جاء آدم بثلاث خصال : الحياء ، والدين ، والعقل ؛ فقال : اختر واحدة منها . فقال : الحياء والدين ، أمرنا أن لا نفارق العقل

لولا العقول لكان أدنى ضيغم ... أدنى الى شرف من الإنسان

الكلام والمتكلمون

— ٥ —

المعــــــتزلة

مميزاتهم العامة :

اتفقت فرق المعتزلة — على اختلاف نزعاتها وتباينها فى بعض المبادئ — فى كثير من المميزات ، كما اتفقت فى أصول مذهبها العام على ما سيجىء . وإليك أهم هذه المميزات :

(١) اعتمادهم على العقل قبل كل شىء ، وتأويلهم كل ما لا يتفق معه من السمعيات . وقد عللوا هـذا الرأى بأن العقل هو العمدة فى فهم الشرع ، وبالتالى هو مناط التكليف ، وهذا يستوجب احترامه وإنزاله المنزلة الرفيعة التى منحه إياها مبدع الكون حين أصعده الى عرش الجسم الانسانى ، ووجّه إليه خطابه مباشرة ، وأخضع له كل قوى الطبيعة ، وسلّمه مفاتيح مغلقاتها ، وأباح له بنص القرآن الخوض فى التدليل على وجوده ووحدانيته وقدرته . فلو أننا أهملنا حكم العقل لخرجنا على الوضع الإلهى ، وتمردنا على من تنزل البارى جـل شأنه فاحترمه وأمر جميع مبدعاته بالخضوع له . أما تأويل النصوص الشرعية فلا إهانة فيه لمحترم ، ولا اعتداء على حق ، وإنما هو انتقال من معنى كان مباحا قبل اصطدامه مع العقل ، الى آخر قد أصبح واجبا بعد اتفاقه مع هذا العقل .

(٢) دفاعهم الحار عن الوحى وعن كل ما يتعلق به .

(٣) اعتبارهم القرآن هو المصدر الوحيد للأسماء والأحكام .

(٤) خصومتهم مع أهل الحديث الذين لم يلبثوا أن أعلنوا أن المعتزلة فسقة .

(٥) خصومتهم العنيفة مع الجبرية لقولهم بأن الفرد كالريشة المعلقة فى الهواء ، على ماسيجىء فى مذهبهم من مناقضة صريحة لرأى المعـتزلة القائل بأن الفرد يخلق بأتم أنواع الحـرية كل أفعاله ، وإلا لما كان هناك أى معنى للتكليف ولا للمسئولية ، ولاستوت الفضيلة والرذيلة ، ولكان أقل تفريق بينهما ضربا من العنت والعبث .

(٦) حملتهم على الديانات الفارسية التى كان الشيعة قد نقلوها الى البلاد الاسلامية ، والتى كانت تروج لعبادة النار بقولها : إنها أشرف العناصر وأسماها ، ولهذا لم يكن من العـدل أن يسجد إبليس الذى هو من العنصر الأسمى لآدم الذى هو من العنصر الأدنى ؛ والتى كانت إحداها وهى المانوية تدعو الى الرهبنة وإبادة العالم . وقد ألجأتهم حملتهم على هذه الديانات

الى دراسة العناصر ، والى محاربة النار بالتراب . وقد نجم عن ذلك المسلك تعمقهم فى دراسة الفلسفة الطبيعية التى انتعش بانتعاشها المذهب الدهرى ، فأخذ المعتزلة يحاربونه كما حاربوا المانوية ، وإن كانوا قد تأثروا ببعض آرائه .

(٧) مهاجماتهم للرافضية التى كان هشام بن الحكم يمثلها فى عصره أصدق تمثيل . ويعتبر أبو الهذيل زعيم هذه المهاجمات التى وجهها المعتزلة الى الروافض . وقد دفعته عنايته بالرد على أولئك القوم الى دراسة كتب الفلاسفة ، فاستفاد كثيرا من الآراء التى لم يكن للعرب بها عهد من قبل ، وتأثر بها فى مذهبه . ولذلك أطلق عليه الباحثون اسم مؤسس الاعتزال الفلسفى الصحيح ، كما أسلفنا . ولما جاء تلميذه ابراهيم النظّام سار على منهجه فواصل حملته على الدهرية والمانوية والرافضية ، وأعلن أن القرآن كما هو أساس للأسماء والأحكام يجب أن يكون أساسا لجميع المبادىء الخلقية . وبهذا يكون أولئك الزعماء الأربعة : واصل ، وعمرو ، وأبو الهذيل ، والنظام ، هم الذين وضعوا على التوالى القواعد الأساسية للاعتزال . وقد وجدت أهم قواعد المذهب العام بين آراء الأول والثانى منهم ، وتمثلت فيهم المميزات التى أسلفناها .

مذهبهم العام :

اتفقت فرق المعتزلة كلها على خمس قواعد أساسية هى أصول مذهبهم . فالأولى : قاعدة التوحيد ، والثانية : قاعدة العدل ، والثالثة : قاعدة الوعد والوعيد ، والرابعة : قاعدة الأفعال والأحكام ، والخامسة : قاعدة العقل والسمع . وقد تفرعت عن كل قاعدة من هذه القواعد عدة مشاكل كانت مجموعة المذهب العام للمعتزلة .

فمن قاعدة التوحيد مثلا : تفرعت مشكلة الصفات ، إذ بينما أعلنت الصفاتية أن التوحيد معناه نفى القسيم فى الذات ، والنظير فى الصفات ، والشريك فى الأفعال ، صرحت المعتزلة بأن الله تعالى واحد فى ذاته لا قسيم ولا صفة له ، وواحد فى أفعاله لاشريك له ، فلا قديم غير ذاته ، ولا قسيم له فى أفعاله . فمحال وجود قديمين أو اجتماع مؤثرين على أثر واحد . وإذاً فالله قادر بذاته ، مريد بذاته ، عالم بذاته ، لا بقدرة أو إرادة أو علم ، لأن القدم أخص وصفه ، فلو شاركته الصفات فيه لشاركته فى الألوهية . وقد ادعوا أن هذا وحده هو التوحيد الحقيقى . ولذلك أطلقوا على أنفسهم اسم « أهل التوحيد » . وعن هذه القاعدة أيضا تفرعت مشكلة جحود رؤية الإله فى الدار الآخرة ، لانتفاء الشبه والجهة والتحيز عنه ، « لأنه لا كالأشياء ، وأنه ليس بجسم ولا عرض ، ولا عنصر ولا جزء ولا جوهر ، وإن شيئا من الحواس لا يدركه فى الدنيا ولا فى الآخرة » (١)

(١) انظر صفحة ١٥٣ جزء ثالث من كتاب مروج الذهب للمسعودى طبعة القاهرة سنة ١٩٣٨

ولما اتسع نطاق الفلسفة الاغريقية في البيئات العربية ، ألفى المعتزلة في آراء الفلاسفة مرتعا خصيبا من الجدل ، وثروة واسعة من البراهين ، فبعد أن كان خصومهم من الصفاتية يكادون يتفوقون عليهم بقولهم : إن التقسيم لا يتحقق إلا عند التألف ، والتألف لا يكون إلا في الأجسام ، أما مسألة الذات والصفات فليس التألف فيها حقيقيا ، عاد المعتزلة فهزموهم بما وجدوه مسطرا في مؤلفات الفلاسفة من أن التأليف خمسة أنواع : الأول : التألف المادى كتألف الجسم الطبيعى من العظم واللحم ، والثانى : التألف العقلى كتألف الجسم من الهيولى والصورة ، والثالث : التألف بالقول الشارح كتألف تعريف الـكائن من الجنس والفصل ، والرابع : تألف الـكائن من ذاته وصفاته ، والخامس : تألفه من الماهية والوجود ؛ ثم أوضحوا لهم أن أى واحد من هـذه التألفات ينافى الوحـدة الحقيقية ، وأن القول بالصفات يقتضى التألفات الثلاثة الأخيرة من هذه الخمسة ، إذ هو يستلزم أن يـكون الإله مؤلفا من الذات والصفات ، وأن يـكون تعريفه ذا جنس وفصل ، وأن يـكون وجوده غير ذاته ، وبالتالى يكون قولنا : « الله موجود » قضية مؤلفة من موضوع ومحمول متغايرين ، والمغايرة تنافى الوحدة التامة ، إلى غير ذلك مما هو مبسوط فى أسفار فلاسفة الاسلام وخصومهم من أعلام المتـكلمين كالأئمة : الأشعرى ، والغزالى ، والرازى .

وعن قاعدة العدل : تفرعت مشـكلة وجوب فعل الصلاح على البارى لضرورته في تحقق العدالة الإلهية ، لأنه بينما أعلنت الصفاتية أن العدل هو تصرف المالك فى ملـكه على مقتضى العلم والمشيئة ، والظلم ضد ذلك ، وبالتالى تكون تصرفات الإله كلها عادلة ، لأنها صدرت منه فى ملـكه بمقتضى علمه ومشيئته ، قررت المعتزلة أن العدل هو ما يقتضيه العقل من الحـكمة ، وهو إصدار الفعل على وجه الصواب والمصلحة . وهذا يقتضى أن يكون فعل الصلاح واجبا على الله ، لـكى يتحقق العدل المتوقف على الحـكمة .

ومن هذين التعريفين ، وما استقر عليه كل من الفريقين من حكم على العدل ، وعلى الأخص من براهين متأخرى المعتزلة فى هـذه المشكلة ، يتبين جليا أن هؤلاء الأخـيرين قد تأثروا بالفلسفة فنظروا الى العدالة فى ذاتها ، أى من حيث فـكرتها النظرية دون أى التفات الى الناحية العملية فيها . ولهـذا لم يعنهم فى التصرف إلا اتباع الحـكمة ، ولم يهتموا بأن يكون واقعا فى ملك المتصرف أو فى ملك غيره ، وإنما لاحظوا فى العـدالة الهيئة الهندسية التى تقابل عند الفيثاغوريين الشكل المربع ، والتى بها استوى نظام السماء والأرض ، وتحقق الانسجام فى جميع كليات الـكون وجـزئياته . أما عقلية الصفاتية فقد نظرت الى العـدالة من حيث ناحيتها العملية التى تلتفت الى النتائج لا الى الفكر النظرية . ولهذا كان كل ما شغلها هو أن يكون التصرف واقعا فى ملك المتصرف، ولو كان معاديا للنظام ، مختصما مع الانسجام .

وفى هذه القاعدة أيضا ، اندمجت مشكلة قدرة الفرد على خلقه أفعاله الاختيارية ، تلك المشكلة التى أبنا لك أنها نشأت قبل ظهور فرقة الواصلية . وقد عللوا قولهم بحرية الفرد بعلة ضرورته كذلك لتحقق العدل الإلهى ، لأن عقاب المجرم ظلم ، وإثابته سفه ، والإله منزه عن الظلم والسفه ، أما التفضل فمنزلة وراء ذلك . ولهذا أطلقوا على أنفسهم وحدهم اسم : « أهل العدل » .

وفى قاعدة الوعد والوعيد أيضا : يمكن إدماج مشكلة حرية الفرد ، لأن الصفاتية قرروا أن وعد الله ووعيده أزليان ، فمن أثيب فبوعده ، ومن عوقب فبوعيده . أما المعتزلة فقد صرحوا بأن الوعد والوعيد محدثان ، وبأن من أثيب فبفعله ، ومن عوقب فبفعله . وإذا كان الفعل عندهم هو منشأ الثواب والعقاب ، فيجب أن يقع بأتم الحرية . وعن هذه القاعدة أيضا تفرعت مشكلة أزلية القرآن أو حدوثه ، لأنه كلام به أدى الوعد والوعيد المحدثان عند المعتزلة ، القديمان عند خصومهم . وقد تداخلت هذه المشكلة أيضا فى قاعدة التوحيد حيث اعترض المعتزلة على القائلين بقدم القرآن باعتراض تعدد القدماء .

وعن قاعدة الأسماء والأحكام : نشأت مشكلة المنزلة بين المنزلتين ، التى دار فيها الجدل حول مرتكب الكبيرة وهل يسمى مؤمنا أو كافرا ؟ وأعلن فيها المعتزلة القول بالتوسط بين الكفر والإيمان ، وكانت سبب اعتزال واصل عن الحسن ، أو سبب نشوء فرق المعتزلة على أحد الأقوال ، كما أبنا ذلك فى موضعه .

وعن قاعدة العقل والسمع : نشأت مشكلة المعرفة والوجوب وهل هما بالعقل أو بالشرع ؟ فاعلنت الصفاتية أن المعرفة بالعقل ، والوجوب بالسمع ، أى أن العقل لا يحسّن ولا يقبّح ، ولا يقتضى ولا يوجب ، بل يعرف فقط ، وأن السمع لا يوجد المعرفة بل يوجبها . وقررت المعتزلة أن المعارف كلها معقولة بالعقل ، واجبة بالنظر ، وأن الحسن والقبح صفتان ذاتيتان للحسن والقبيح ، فهما مدركتان بالعقل ، وأن شكر المنعم وفعل الخير وتجنب الشر واجبات بالعقل(١) . « يتبع »

الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

(١) انظر صفحة ٤٨ وما بعدها من الجزء الاول من كتاب الشهرستانى .

حياة رجالات الإسلام

عبد الله بن مسعود

والقرآن الكريم

تحدثنا فى المقال السابق عن مزيد اختصاص عبد الله بن مسعود بالنبى صلى الله عليه وسلم فى خاص أحواله وخفى شئونه ، مما جعل بعض الأكابر من الصحابة يحسب أنه من آل البيت ، لما يرى من كثرة دخوله على النبى صلى الله عليه وسلم فى أوقات وأحوال ليس لأحد غيره أن يدخل فيها عليه .

ومن الطبعى أن هذا الاختصاص لرجل مثل ابن مسعود من السابقين الأولين الذين أوتوا حساً مرهفا ، وذكاء فطريا ، وذهنا خصبا ، وسريرة صافية ، كان له أكبر الفضل فى تميز ابن مسعود من بين إخوانه قادة الفكر الاسلامى الذين خرجتهم المدرسة المحمدية العظمى ، بألوان شتى من الحياة الاسلامية تولدت منها مذاهب وآراء لها فى تاريخ التشريع الاسلامى خطرها ، ولا سيما فيما يتعلق منها بالقرآن الكريم ، دستور الاسلام الأعظم ، حفظا وأداء وتدوينا ، وفقها فى أحكامه ، وغوصا على حِكمه وأسراره .

وقد رأينا أن هذه الناحية من المباحث الاسلامية عُنى بها أشد العناية علماء المشرقيات من باحثى الغرب فى عصرنا الحاضر ، ونشروا فى موضوعاتها كتبا وبحوثا وتعليقات تردد صداها بين الباحثين ، واشتجرت فى شأنها الأقلام ، فكان من حق البحث علينا ونحن نحاول أن نرسم لشباب الاسلام ـ فى صدد الحديث عن رجالات الاسلام وقادة الفكر ـ صورة موجزة عن حياة هذا النابغة الجليل ، أن نلم إلمامة عاجلة بما تردد على أسلات الأقلام حول تدوين القرآن وقراءاته الباعثة على جمع الناس حول مصحف عثمان رضى الله عنه ، وما يتصل بعبد الله ابن مسعود من ذلك ، متوخّين ذكر ما تطمئن إليه النفس ويرتاح له الضمير .

كان عبد الله بن مسعود من أقرأ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم للقرآن ، وأقومهم بأدائه ؛ رُوى « أن ابن عباس رضى الله عنهما قال لبعض أصحابه : أى القراءتين تعدّون أولى ؟ فقالوا : قراءة عبد الله ، فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يُعرَض عليه القرآن فى كل رمضان مرة إلا العام الذى قبض فيه فإنه عرض عليه مرتين ، فحضره عبد الله بن مسعود

فشهد ما نسخ منه وما بدّل » . وهذا الأثر لم يتضح منه قراءة مَنْ مِن قُرّاء الصحابة التى جعلها ابن عباس فى مساءلته أصحابَه عِدلا لقراءة عبد الله بن مسعود ، وأقرب الظن أنها قراءة زيد بن ثابت . ويرشح هذا أمران :

(الأول) ما رواه ابن سعد فى الطبقات عن شقيق بن سلمة قال : « خطبَنا عبد الله بن مسعود حين أمر فى المصاحف بما أمر ، فذكر الغلول فقال : إنه من يَغلُل يأت بما غلَّ يوم القيامة ، فغلوا فى المصاحف ، فلأن أقرأ على قراءة من أحب أحبّ الىَّ من أن أقرأ على قراءة زيد بن ثابت ؛ فوالذى لا إله غيره لقد أخذت مِن فى رسول الله صلى الله عليه وسلم بضعا وسبعين سورة ، وزيد بن ثابت غلام له ذؤابتان يلعب مع الغلمان ؛ والذى لا إله غيره لو أعلم أحداً أعلم بكتاب الله منى تبلغه الإبل لأتيته ! قال شقيق بن سلمة : ثم ذهب عبد الله فقعدت فى الحِلَق وفيهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وغيرهم فما رأيت أحدا رد عليه ما قال » .
ففى هذه الخطبة دلالة على أن المنافس لعبد الله فى قراءته هو زيد بن ثابت ، فهو أجدر أن يكون مزاحما بقراءته التى أصبحت فيما بعدُ قراءة الجمهور . وأثر ابن عباس يدلنا على أنه كان يذهب مذهب ابن مسعود فى قراءته ويقدمها على قراءة زيد معللا ذلك بأن عبد الله حضر العرضة الأخيرة التى استقر عندها محكم الكتاب .

(الثانى) أن زيد بن ثابت ـ كما يقول السيوطى فى الاتقان ـ انتهت اليه الرياسة فى القراءة ، وأنه هو الذى عهد اليه أبو بكر وعمر رضى الله عنهما بأول جمع للمصحف ، ولم يكن لغيره من القراء ما كان له ؛ فقراءته أقرب الى أن تكون هى الموازنة لقراءة عبد الله . والذى يظهر أن لهذين الإمامين الجليلين ميزة فى حفظ القرآن اختص كل واحد منهما بجانب منها ، وقد كانت براعة عبد الله فى حسن الأداء والترتيل ، فقد روى « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : اقرأ علىَّ ، فقلت : كيف أقرأ عليك ، وعليك أنزل ؟ قال : إنى أشتهى أن أسمعه من غيرى ، قال عبد الله : فقرأت عليه سورة النساء حتى إذا بلغت « فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا » قال لى : حسبك ! فنظرت اليه وقد اغرورقت عينا النبى صلى الله عليه وسلم وقال : من سَرَّه أن يقرأ القرآن غضًّا كما نزل فليقرأه قراءة ابن أم عبد » .
وقد كان رضى الله عنه أعطى حظا عظيما فى تجويد القرآن ، وكان يأمر به ويقول فيما روى عنه : « جوِّدوا القرآن » . وفى الصحيحين عنه « أن رجلا قال له : إنى أقرأ المفصَّل فى ركعة واحدة ، فقال عبد الله : هذًّا كهذ الشعر ؟ إن قوما يقرءون القرآن لايجاوز تَراقِيَهم ، ولكن إذا وقع فى القلب فرسخ فيه نفع » . وكان رضى الله عنه يقول لتلاميذه وأصحابه : « لا تنثروه نثر الدَّقَل ولا تهذوه هذّ الشعر ، قفوا عند عجائبه ، وحركوا به القلوب ، ولا يكون همّ أحدكم آخر السورة » .

كانت هذه العناية الفائقة من ابن مسعود بالقرآن الكريم باعثا قويا على أن يدوّن لنفسه مصحفا يجمع بين دفتيه ما سمع من النبي صلى الله عليه وسلم . وحالة التدوين فى أول عهد المسلمين به غامضة ، والروايات فى شأنها كثيرة ، والناظر فى تلك الروايات واختلاف عباراتها اختلافا شديدا يدرك منها أن الذين دونوا ما سمعوه تدوينا فرديا لم يقصدوا الى أن يجمعوا القرآن الحكيم فى مصحف ، وإنما قصدوا عمل مذكرات لهم يرجعون إليها عند الحاجة ، ولم يقصد جمع القرآن فى مصحف يكون إماما للأمة ترجع إليه إذا أعوزتها آياته أحد قبل أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، ولذلك لم يكن عملهما عملا فرديا كعمل غيرهما . روى البخارى فى صحيحه عن زيد بن ثابت قال : « أرسل الىّ أبو بكر مَقتلَ أهل اليمامة فإذا عمر بن الخطاب عنده ، فقال أبو بكر : إن عمر أتانى فقال : إن القتل قد استَحرّ يوم اليمامة بقراء القرآن ، وإنى أخشى أن يستحر القتل بالقراء فى المواطن فيذهب كثير من القرآن ، وإنى أرى أن تأمر بجمع القرآن . فقلت لعمر : كيف تفعل شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال عمر : هو والله خير ! فلم يزل يراجعنى حتى شرح الله صدرى لذلك ، ورأيت فى ذلك ، الذى رأى عمر . قال زيد : قال أبو بكر : إنك شاب عاقل لا نتهمك ، وقد كنت تكتب الوحى لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتتبع القرآن اجمعه ، فوالله لو كلفونى نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علىّ مما أمرنى من جمع القرآن ، قلت : كيف تفعلان شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال هو والله خير ! فلم يزل أبو بكر يراجعنى حتى شرح الله صدرى للذى شرح الله له صدر أبى بكر وعمر ، فتتبعت القرآن أجمعه من العُسُب واللخاف وصدور الرجال ، ووجدت آخر سورة التوبة مع أبى خزيمة الأنصارى لم أجدها مع غيره : « لقد جاءكم رسول » حتى خاتمة براءة ، فكانت الصحف عند أبى بكر حتى توفاه الله ، ثم عند عمر حياته ، ثم عند حفصة بنت عمر » . وقد لا يُبعد من يفهم فى هذا الحديث أنه ظاهر جدا فى شدة الاحتياط فى قرآنية ما يدون تدوينا جماعيا ، لأن زيدا قال : فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال ؛ فكأنه رضى الله عنه جعل لنفسه قاعدة لتدوين القرآن : أن يجد الآية أو السورة فى العسب واللخاف وصدور الرجال ، وليس يكفى وجدانها فى واحد من هذه المصادر ؛ ولما كان الوجود فى صدور الرجال يتعدد غالبا نبه فى الحديث على انفراد أبى خزيمة الأنصارى بآخر براءة مع القطع بأنها كانت مدونة فى العسب واللخاف ؛ وبهذا التأويل ينقطع الإشكال على تواتر القرآن ، ويثبت له التواتر النقلى والتدوينى ؛ ولا أعلم فى الروايات بعد البحث ما ينافى هذا التأويل . وروى عن على رضى الله عنه وكرم وجهه أنه كان يقول : « أعظم الناس فى المصاحف أجرا أبو بكر ، رحمة الله على أبى بكر ! هو أول من جمع كتاب الله » . وهذا الجمع من أبى بكر وعمر إنما كان خشية أن يذهب شىء من القرآن بذهاب حفظته ، لأن أصل الكتابة والتدوين كان موجودا فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم ؛ قال الخطابى : « إنما لم يجمع صلى الله

عليه وسلم القرآن فى المصحف لما كان يترقبه من وجود ناسخ لبعض أحكامه أو تلاوته ، فلما انقضى نزوله بوفاته ألهم الله الخلفاء الراشدين ذلك ، وفاء بوعـده الصادق بضمان حفظه على هذه الأمة ، فكان ابتداء ذلك على يد الصدِّيق بمشورة عمر » .

انتهى هذا الدور ، ولم يظهر أثر لاختلاف المصاحف ، ولم يتردد صدى شيء من هذا النحو الذى ظهر فى طور الجمع العثمانى ؛ وكان ذلك لأن السبب فى الجمعين مختلف ؛ قال ابن التّين : « الفرق بين جمع أبى بكر وجمع عثمان أن جمع أبى بكر كان لخشية أن يذهب شيء من القرآن بذهاب حملته ، لأنه لم يكن مجموعا فى موضع واحـد ، فجمعه فى صحائف مرتّبا لآيات سوره على ما وقفهم عليه النبى صلى الله عليه وسلم ؛ وجمع عثمان كان لما كثر الاختلاف فى وجوه القراءة حتى قرءوه بلغاتهم على اتساع اللغات ، فأدى ذلك بعضهم الى تخطئة بعض ، فخشى من تفاقم الأمر فى ذلك ، فنسخ تلك الصحف فى مصحف واحد ، مرتبا لسوره ، واقتصر من سائر اللغات على لغة قريش ، محتجا بأنه نزل بلغتهم ، وإن كان قد وسع فى قراءته بلغة غيرهم رفعا للحرج والمشقة فى ابتداء الأمر ، فرأى أن الحاجة الى ذلك قد انتهت فاقتصر على لغة واحدة » . وقال القاضى أبو بكر الباقلانى : « لم يقصد عثمان قصد أبى بكر فى جمع نفس القرآن بين لوحين ، وإنما قصد جمعهم على القراءات الثابتة المعروفة عن النبى صلى الله عليه وسلم وإلغاء ما ليس كذلك ، وأخذَهم بمصحف لاتقديم فيه ولا تأخير ولا تأويل أُثبت مع تنزيل ، ولا منسوخ تلاوته ، كُتب مع مثبت رسمه ومفروض قراءته وحفظه ، خشية دخول الفساد والشبهة على من يأتى بعد »

وهـذا الاختلاف فى القراءات الذى دعا عثمان الى جمع المصحف الإمام ، كان موجودا على عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، كما يشهد له حديث الصحيح فى اختلاف عمر بن الخطاب وحكيم بن هشام فى سورة الفرقان وتحاكمهما الى النبى صلى الله عليه وسلم وتصويب قراءتهما جميعا ، لأن حياة النبى صلى الله عليه وسلم ونزول الوحى عليه كانت أعظم ضمان لتنزيه القرآن عن أحرف لم ينزل بها الوحى ، أما إذ انقطع الوحى بوفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يبق مناص من سـد الثغر التى ينفذ منها الخطأ ، وذلك بجمع الناس على مصحف واحد يتخذونه إماما لهم ، وذلك ما صنع عثمان رضى الله عنه .

من هذه الروايات الـكثيرة يظهر أن القرآن الـكريم كان فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم مكتوبا مجموعا مرتبا ترتيبه الذى تلقته عليه الأمة جيلا بعد جيل ، من غير زيادة حرف أو نقص حرف ، أو تقديم كلة وتأخير أخرى ؛ وهو الذى تضافرت عليه أقوال الأئمة المعتد بهم فى جميع الدهور والأعصار ؛ قال القاضى أبو بكر الباقلانى : « الذى نذهب إليه أن جميع القرآن الذى أنزله الله وأمر بإثبات رسمه ولم ينسخه ولا رفع تلاوته بعد نزوله هو هـذا الذى بين الدفتين الذى حواه مصحف عثمان ، وأنه لم ينقص منه شيء ولا زيد فيه ، وأن

ترتيبه ونظمه ثابت على ما نظمه الله تعالى ورتبه عليه رسوله من آى السور ، لم يقدَّم من ذلك مؤخَّر ، ولا أخر منه مقدم ، وأن الأمة ضبطت عن النبي صلى الله عليه وسلم ترتيب آى كل سورة ومواضعها ، وعرفت مواقعها ، كما ضبطت عنه نفس القراءات وذات التلاوة » . وعن ابن وهب قال : سمعت مالكا يقول : « إنما أُلِّف القرآن على ما كانوا يسمعون من النبي صلى الله عليه وسلم » .

لم يبق سبيل للاعتماد على بعض الروايات الواهية أو المحرفة فى فهمها التى تنسب الى عبد الله ابن مسعود من إنكار كون المعوذتين وفاتحة الكتاب ليستا من القرآن لأنهما لم يوجدا فى مصحفه . قال الامام فخر الدين الرازى : « نقل فى بعض الكتب القديمة أن ابن مسعود كان ينكر كون سورة الفاتحة والمعوذتين من القرآن ؛ وهو فى غاية الصعوبة ؛ لأنا إن قلنا إن النقل المتواتر كان حاصلا فى عصر الصحابة يكون ذلك من القرآن ، فإنكاره يوجب الكفر ، وإن قلنا لم يكن حاصلا فى ذلك الزمان فيلزم أن القرآن ليس بمتواتر فى الأصل . والأغلب على الظن أن نقل هذا المذهب عن ابن مسعود باطل » . وقال النووى فى شرح المهذب : « أجمع المسلمون على أن المعوذتين والفاتحة من القرآن ، وأن من جحد منها شيئا كفر ، وما نقل عن ابن مسعود باطل ليس بصحيح » . وقال ابن حزم : « هذا كذب على ابن مسعود وموضوع ؛ وإنما صح عنه قراءة عاصم عن زرّ عنه وفيها المعوذتان والفاتحة » . والذى يدل لذلك إجماع الأمة من لدن عصر النبوة على أنه لم تقع صلاة فى الاسلام بغير فاتحة الكتاب ، كما نقله صاحب الإتقان .

وقد قدمنا لك خطبة عبد الله بن مسعود التى تفيد أن الخلاف بينه وبين غيره إنما كان على القراءات ، وقد قال له الناس حينما عزله عثمان عن الكوفة : أقم ونحن نمنعك أن يصل اليك شىء تكرهه ، فقال : « إن له علىّ حق الطاعة ، ولا أحب أن أكون أول من فتح باب الفتنة » .

صادق ابراهيم عرجون

حجاب القادة

ذم كثير من الأدباء الحجاب المضروب على القادة ، كأنهم يريدون أن يدخل عليهم من يريد وقت ما يريد . وغاب عنهم أنهم لو سمحوا بذلك لما وجدوا وقتا لتصريف الأمور العامة . ومن هؤلاء الذى قال :

ليس الحجاب بالة الأشراف — إن الحجاب مجانب الإنصاف
ولقل من يأتى فيحجب مرة — فيعود ثانيـة بقلب صاف

ولكن أفضل من هذا وأحكم قول أبى تمام :

ليس الحجاب بمقص عنك لى أملا — إن السماء ترجى حين تحتجب

باب الأسئلة والفتاوى

فى الميراث :

جاء الى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الاستفتاء الآتى :

توفى رجل وترك أولاد أختين : ثلاث بنات من واحدة ، وولدا وبنتا من الأخرى ، ومقدار التركة خمسة عشر جنيها ؛ فما بيان الحكم الشرعى ؟

شافعى سلامه
بسرياقوس

الجواب :

هؤلاء المذكورون من ذوى الأرحام ، وحكمهم فى هذه الحادثة أن أولاد كل أخت ينزلون منزلة أمهم ويأخذون ما كانت أمهم تأخذه لو كانت هى الموجودة وقت وفاة أخيها المتوفى .

والظاهر من السؤال أن الأختين شقيقتان ؛ فإذا كان الواقع كذلك فإن التركة تقسم نصفين ، كل نصف يوزع على أولاد أخت ، فيأخذ البنات الثلاث أولاد الأخت الأولى كل واحدة منهن جنيهين ونصفا ، ويأخذ الولد والبنت أولاد الأخت الثانية ما كانت تأخذه أمهم ، للذكر منهم مثل حظ الأنثيين ، فللولد خمسة جنيهات ، وللبنت جنيهان ونصف . والله أعلم .

فى الرضاع :

وجاء الى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الاستفتاء الآتى :

خديجة بنت محمد النهشاوى رضعت من والدتى مريم وقت أن كانت ترضع أخى الأكبر ، وإن خديجة محمد المذكورة قد تزوجت وأنجبت بنتا تسمى حياة ، وإن أخى الذى رضع معها قد توفى ؛ وأنا مرادى الزواج من بنت خديجة وهى حياة . فهل يصح لى الزواج منها أو لا ؟

ابراهيم مصطفى العوف — بمركز بوليس بئر السبع — حيفا

الجواب :

حيث إن خديجة رضعت من مريم فقد صارت مريم أمًّا لها من الرضاع ، وصار جميع أولادها إخوة لخديجة من الرضاع ، فلا يجوز لواحد منهم أن يتزوج حياة بنت خديجة ، لأنها بنت أخته من الرضاع . والله أعلم ؟

رئيس لجنة الفتوى
محمد عبد اللطيف الفحام

المستقبل للاسلام(١)

العلم والفلسفة يهيئان العقول والقلوب لقبول الاسلام دينا عالمياً

ربما خيل لمن لا يعرف الاسلام أن هـذا إعلان جرىء ، ولـكننا نعتقد أنه متى عرفه فسيقرنا عليه ، فكل ما علينا الآن أن نقيم عليه الدليل .

نعم ، إن العالم بفضل تحرره من الوراثات والتقاليد ، وإمعانه فى النقد والتمحيص ، يتمشى على غـير قصد منه نحو الاسلام بخطوات متزنة ثابتة ، لا توجد قوة فى الأرض ترده عنه ، إلا إذا انحل عصام المدنية ، وارتـكست الجماعات الانسانية عن وجهتها العلمية . هذا إجمال يعوزه البيان، فاليك :

قُذف بالانسان الى هذا العالم جاهلا به غاية الجهل ، عميا عن أسراره كل العماية ، ولولا أن خالقه جـل شأنه أوجده حيث الماء والنبات ، لمات ظمأ وسغبا ؛ ولو لا أنه منحه معارف ضرورية يستطيع بها أن يهرب من الضوارى التى كانت تتعقبه ، ويحتمى من العوارض الطبيعية التى كانت تنصبّ عليه ، لما أمكنه أن يبقى أكثر من أيام معدودة . ولـكنه وهبه عقلا ليس لسلطانه حد يقف عنده ، فأخـذ يستهدى بنوره يسيراً يسيراً ؛ حتى استطاع أن يأمن شر العوادى ، وأن يجتمع على أمثاله ، وأن يكتشف أوليات العلم ، ومبادئ الحـكمة . ثم ما برح ترقى حتى أسس الأمصار ، وأوغل فى المعارف ، وسخر قوى الـكون ، وسبر مساتير الوجود ، واخترع الآلات المعجبة ، وهو اليوم يحـدث نفسه بالصعود الى الـكواكب ، وكشف عالم الروح ، والتحكم فى نواميس الحياة .

هذا كله مشاهد محسوس لا يحتاج لتـدليل ، ولـكن الذى يحتاج لتنبيه هو أن الانسان فوق كل ما يحصله من عـلم ، وما يكتشفه من مستور ، يزداد معرفة بما يجب أن يـكون عليه الدين الحق ، وما يلزم أن تؤخذ به النفس من الآداب القويمة ، وما ينبغى أن يقيمه لتوثباته من المثل الأعلى للانسانية الصحيحة .

فى أثناء تمشى الانسان فى هذه السبيل الأدبية ، تحت ضوء العلم والفلسفة ، تسقط فى نظره

(١) طلب الينا أن ندلى باقوى ما نملك من حجج فى موضوع ان المستقبل للاسلام ، ففعلنا ، ولم نشا أن نقصر انتشار هذا البحث الجامع على عدد محصور من القراء ، فرأينا أن نعمم إذاعته بنشره فى مجلة الازهر ليكون الى جانب نظائره مما نقوى به حجة الاسلام فى هذه المجلة .

الواحدة بعد الأخرى ، جميعُ الأوهام الموروثة ، والتعصبات التقليدية ، فيرى الخضوع لها عاراً عليـه ، وسقوطاً لـكرامته ، ويعمل على تطهير قلبه منها ، واجتثاث جـذورها المنبثة فى أقصى ثناياه ، عادًّا ذلك من متممات وجوده الأدبى .

فتكون النتيجة الحتمية من وراء هذه المحاولات الثقافية فى هذه الناحية ، تأسس الأصول الآتية :

(أولا) زوال آثار الوراثات الدينية .

(ثانيا) امحاء التعصب المذموم للعقائد الباطلة .

(ثالثا) قيام النظر العقلى مقام التقليد الأعمى .

(رابعا) قبول كل عقيدة تسلم من النقد وتنهض بها حجة .

(خامسا) الميل الى إيجاد زمالة عامة بين الناس كافة ، ومحاربة كل العقائد المفرقة للأمم ، والجاعلة إياها شيعا .

(سادسا) الاتجاه الى نصب العلم فاروقا بين الحق والباطل ، بغير اعتداد برأى أية طائفة من الطوائف ، أو فرد من الأفراد .

هذه الأصول الستة لا محيص من تولدها كثمرة طبيعية للثقافة العصرية . وقـد تولدت فعلا وصارت جزءا من الدستور العلمى لدى ألوف من المشتغلين بجميع الفروع العلمية ، وليس بينها وبين أن تصبح عنصرا رئيسيا من عناصر العقلية الأوربية إلا أن تنتشر فيها المبادىء الفلسفية ، وهى لا تزال بعيدة عن الدهماء لأسباب اقتصادية ، ولـكن لا بد من بلوغها هذه المنزلة بعد قرنين أو ثلاثة قرون .

فاذا بلغ العالم هذه المرتبة من التعقل ، والخلاص من آثار الوراثة ، ثم لاح له أن ينظر فى الأديان التى يعتبرها إذ ذاك بقايا أثرية ، للعقلية البشرية ، تبين له أنه فى صميم الاسلام ، وأنه فى جهاده العلمى الطويل كان يعمل لإقامة دولته ، وإعلاء كلمته ، وهو يتوهم أنه يهدمه فيما يهدم من العقائد الباطلة ، والوساوس المعطلة .

فكما جاءت الحوادث مصدقة لقوله تعالى : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا » الآية . وقـد كانوا يعبدون الله سرا ويخشون أن يتخطفهم أعداؤهم ويمزقوهم شذر مذر ، فآتاهم الله خلافة الأرض ، وجعل دينهم ظاهرا على الأديان كلها ، كذلك ستصدّق الحوادث ما وعد الله به من أنه سيُرى الناس آياته فى الآفاق وفى أنفسهم حتى

يتبين لهم أن هذا الدين هو الحق : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد » .

وقد ظهرت بوادر هذا الانقلاب فى أقوال الكثيرين من أقوال علماء الغرب ، وقد رأى بعضهم ومنهم (برنارد شو) أن أوربا قد لا يمضى عليها قرنان حتى تكون قد اتخذت الاسلام دينا .

أى شىء يعتبر فى حكمه هذا بعيدا عن العقل ؟ أليست الأصول الستة التى أثبتناها هنا ، وهى أخص أصول الدستور العلمى ، هى نفسها أخص أصول الاسلام ، بل هى معناه وروحه ، والموجب لجعله دينا للعالمين كافة فى كل زمان ومكان ؟

لقد كلف الاسلام كل داخل فيه أن يكون متجردا من كل ما يربطه بالماضى من دين ووراثة وتقليد ووهم وخيال ؛ وأن يُقبل عليه خالى القلب من كل صورة ذهنية ، ورأى سابق ، على مثال ما يكون عليه الطفل ساعة تضعه أمه .

فاذا تمت له هذه التصفية ولُقن أمور الدين ، أُمر أن يتعقلها وأن ينظر فى أدلتها ، ونُهى أن يأخذ بها تقليدا مهما كانت مكانة الرجل الذى يقلده ؛ وكُلف أيضا أن يتأمل فيما نصبه الله فى الكون من معالم الحق ، وأن يدرسها دراسة المتتبع لأسرار الخلق ، مخضعا كل ما يحصله لأدق أساليب التمحيص والتحليل ، حتى لا يتورط فى الأخطاء فيضل ويضل ، وهو مسئول عن كل ما يستخدمه فى هذا السبيل من حواسه ومشاعره ، ومحاسب حتى على جيشات خواطره . وإنا لمقتبسون لك آيات من الكتاب تريك مكان هذه الأصول منه ، فاليك :

قال الله تعالى فى ماهية الدين الحق : « فأقم وجهك للدين حنيفا ، فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » . وقد شرح النبى صلى الله عليه وسلم هذه الفطرة فقرر أنها مثل الحالة التى يكون عليها الطفل ساعة ميلاده : « كل مولود يولد على الفطرة ، وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » . أى أن كل مولود يولد على الدين الحق المطلق « الاسلام » ولكن أبويه ينقشان فى عقله من الصور ما يغيّران به هذه الفطرة السليمة لتعلق به فلا يستطيع عنها حولا .

وقال تعالى فى ذم الظنون والأوهام : « إن يتبعون إلا الظن وإن هم لا يخرصون » . وقال « وما يتبع أكثرهم إلا ظنا ، إن الظن لا يغنى من الحق شيئا »

وقال تعالى فى النهى عن اتباع الهوى : « ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله » . وقال فى وجوب إقامة سلطان العقل : « أفلا تعقلون » . وكرر ذلك فى آيات كثيرة بألوان مختلفة عشرات من المرات .

وقال فى ذم الذين لا يعرفون للعقل حقه : « إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون » . وقال : « صم بكم عمى فهم لا يعقلون » . وقال : « ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون » . وقال : « وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير . فاعترفوا بذنبهم فسُحقاً لأصحاب السعير » .

وقال تعالى فى المسئولية الشخصية ، وفى عدم جواز الاعتماد على الغير : « كل نفس بما كسبت رهينة » . وقال : « وأن ليس للانسان إلا ما سعى . وأن سعيه سوف يُرى . ثم يُجزاه الجزاء الأوفى » . وقال « واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا ، ولا يقبل منها شفاعة ، ولا يؤخذ منها عدل (أى فداء) » .

وقال تعالى فى ذم التقليد الأعمى : « وقالوا (أى يوم القيامة) ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا » . وقال : « إذ تبرأ الذين اتُّبعوا (أى يوم القيامة) من الذين اتَّبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب . وقال الذين اتَّبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرءوا منا ، كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار » .

وقال تعالى فى وجوب طلب الدليل القاطع على كل عقيدة ، وفى النعى على الذين يعتقدون تقليدا بغير حجة : « ومن يدْعُ مع الله إلها آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه » . وقال فى وجوب تقاضى الدليل من كل صاحب قول : « قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين »

وقال فى تسفيه أحلام الذين يجمدون على ما ورثوه من آبائهم من الأباطيل : « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله ، قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، أَوَ لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون ؟ » « بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون » .

هذا دستور دينى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم فى زمن لم يكن فيه لدستور أيا كان نوعه دولة فى الأرض ، لا من الناحية السياسية ، ولا من الناحية العلمية ؛ أما من الناحية السياسية فقد كان لا يعرف أحد أن للحكومة دستورا قط . فكان الناس من هذه الناحية غرقى الى يا فيخهم فى حكومة الفرد لا يعرفون لهم حقوقا ، ولا وجودا معها .

أما أمر الدين فقد كان دستوره عندهم : « اعتقد وأنت أعمى » كما قاله العلامة لاروس فى دائرة معارف القرن التاسع عشر. أما هذا معقول وهذا غير معقول ، وهذا يحتاج الدليل ، فعبارات كانت تجر الى النار المحرقة فى تنانير كانت أعدت لذلك .

جاء محمد صلى الله عليه وسلم بذلك الدستور الدينى ، وهو القرآن ، والناس قاطبة على ما وصفنا من العمايات المتراكبة بعضها فوق بعض ، وقد جمدوا على ما كانوا عليه حتى صار حالا ملازما لهم لا يتصورون الحياة على حال غيره ، بل لا يحبون أن يسمعوا داعيا يدعوهم الى نقيضه ، وإذا

أقدم على ذلك وصموه بالجنون . وقد حكى الله ما قالوه للنبي صلى الله عليه وسلم حين دعاهم الى النور فقال تعالى : « وقالوا يأيها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون » . وقالوا : « أإنا لتاركو آلهتنا لشاعر مجنون ؟ » . فرد الله عليهم بقوله : « أم يقولون به جنة ؟ بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون » .

فإذا كانت ثمرة هذا الدستور الإلهى فى البقعة الفسيحة من الأرض التى استولى عليها المسلمون فى أول الاسلام ، هى دخول أمم برمتها فيه ، بغير إجبار ، بل بغير دعاية منظمة ، والعقول لم تكملها العلوم ، والنفوس لم تصقلها الشكوك ، فماذا ينتظر أن يكون عليه حال العالم المتمدن إذا عرف الاسلام حق معرفته ، وتبين الناس أنه لا ينطبق على الدستور العلمى فحسب ، ولكن أصوله الأولية هى ذلك الدستور نفسه ، بالغا أكمل ما يمكن أن يصل إليه من السمو والإحاطة بكبريات الأمور وصغرياتها ، بحيث لا تفلت منه حتى همسات السرائر ، وحركات الضمائر : « إن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله » .

العالم المتمدن يحاول حل مسألة الدين :

قد يقول معترض : إنكم تنفقون أوقاتكم فى الكلام عن العالم المتمدن من ناحية الدين ، على حين أنه قد فرغ منها ، ولم يعد يخطرها بباله ، وقد محض نفسه للبحوث المادية ، وتسخير قوى الكون لحياته الدنيوية .

الحقيقة أن المعترض غير مصيب فيما يقول . فإن العالم المتمدن اليوم أشغل ما يكون بالمسألة الدينية من جميع نواحيها . فإن كان لابد من الاستشهاد بأقوال أقطابه ، فإليك ما كتبه الأستاذ (هنرى بيرانجيه) فى المجلد الرابع والعشرين من مجلة المجلات الفرنسية ، قال :

« إن المسألة الدينية أهم ما يشغل العالم المتمدن اليوم ، لأن مستقبل الأمم المتحضرة يتوقف على حلها » .

ثم قال :

« إذا كان النقد التاريخى قد حطم اليوم كل الأشكال المتحجرة فى الأديان ، فإنه لم يستطع أن يعدو على العاطفة الدينية ، بل اعترف باستمرارها وشيوعها فى كل دور من أدوار التاريخ ، ورأى أن كل تلك الآلهة المختلفة المتعاقبة ، تشهد بأن الانسان مفطور على الاعتقاد بالله رغم أنفه . ففى كل جهة وكل زمان قد شوهدت حاجة الانسان الى الدعاء والعبادة والتضحية ، فى أخس الأديان الوثنية ، كما فى أرقى المذاهب الروحانية . هذه هى الشرارة البسيكولوجية (أى النفسية) التى استخلصها من رماد العصور الماضية تاريخ المقارنة بين الأديان . فمن المحال أن يطفئها ، ولكنه سينقلها الى المستقبل » .

ثم قال :

« إننا نأمل الوصول الى حل المسألة الدينية ، وبخاصة لأن الديانة الفطرية (أى الطبيعية) قد ولدت منذ مائة عام ، ودرست بواسطة بعض كبار الفلاسفة الفرنسيين . فجان جاك روسو ولمرتين ولامنيه وميشيليه وكينيه ، كانوا من كبار المبشرين بهذه الديانة الجديدة . وقريب منا إرنست رينان وجيو وشوريه وساباتييه قد أمدوها بقوة عظيمة جديدة » انتهى .

نقول : ماهى هـذه الديانة الطبيعية التى يعتقد كبار المفكرين فى الغرب بأنها الديانة العالمية العلمية المستقبلة ؟

إنا نأتيك بها على لسان أحد كبار أشياعها ، وهو الفيلسوف الفرنسى (كارو) ، فقد قال فى كتابه :

(البحوث الأدبية على الزمان الحاضر) ما يأتى :

« أصول الديانة الطبيعية هى الاعتقاد بوجود إله مختار خلق الكائنات وعنى بها . وهو متميز عن العوالم الكونية وعن النوع الانسانى ، ووجود روح للانسان متصفة بالادراك والحرية ، ومحبوسة فى هذا الجثمان المادى أمدا لتبتلى فيه ، وهذه الروح تستطيع بارادتها أن تطهر هذا الجثمان وتنقيه ، إذا عرجت به نحو السماء ، ويمكنها أن تسفله باخلادها الى المادة الصماء ، والاعتقاد المطلق بسمو العقل على الحس ، ووضع الحرية الخلقية التى هى ينبوع وأصل جميع الحريات ، تحت سيطرة الاعتدال ، وإعطاء الصفات الفاضلة اسمها الحقيقى وهو الامتحان والابتلاء ، وتحديد غرضها الصحيح ، وهو التخليص التدريجى للنفس من علائق الجسم ، والتهيؤ لساعة الموت بالزهادة . وأخيرا الاعتراف بناموس الترقى . ولكن بدون فصل ترقى الانسان فى مدارج السعادة المادية عن العواطف الفاضلة التى هى وحدها تبرر تلك السعادة » اهـ .

نقول : هل يعنى كل هذا الجهد الجاهد من الفلاسفة والمفكرين ، غير محاولة الرجوع لدين الفطرة ، تحت تأثير حوافز من أنفسهم ، ومن تجلى آيات الله لهم ، فى الآفاق المحيطة بهم ، مصداقا لتلك الآية الكريمة ؟

فالدين الفطرى (أى الطبيعى) آت لامحالة باعتبار أنه دين عالمى للبشر كافة بحكم العلم نفسه . والدين الفطرى هو الاسلام بنص كتابه ، وبموجب أصوله . فاذا آنس الناس تلكؤا فى التمشى اليه فذلك أمر طبيعى ، لأن أكثر الناس عوام يجمدون على ما ورثوه ، ويستميتون فى تأييده وإن كانوا لايعقلونه ، ولكن بوتقة الوجود دائبة على صهر العقول جيلا فجيلا تطهيرا لها من الكدر العالق بها طبقة بعد طبقة ، والحقائق فى الوقت نفسه تزداد ذيوعا بينهم ، فلا يزال الأمر جاريا على هذه الوتيرة حتى لا يبقى فى الناس من يعتقد فيما لا يعقل ، وإذ ذاك تحل الروح الاسلامية

فى العالم بكل ما قامت عليه من أصول عقلية ، ومبادىء علمية ، فيتحقق أعظم إصلاح عالمى يتمناه المصلحون فى العصر الحاضر .

فى ذلك اليوم لا يستطيع مفكر كالأستاذ (هنرى بيرانجيه) المتقدم ذكره أن يقول : « لما كانت الأديان ليست بشىء غير مظاهر رمزية للعاطفة الدينية فستتلاشى عاجلا أو آجلا ككل الآثار الانسانية ، ولكن تلك العاطفة لن تتلاشى أبدا إلا مع الانسان نفسه » .

نعم لا يستطيع أن يقول ذلك . لأنه يجد الدين الأخير منها هو تلك العاطفة نفسها ، كما ينص عليه كتابه فى قوله تعالى : « فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » ، ويجد أن كل ما تستدعيه تلك العاطفة الدينية من معتقدات وعبادات ومعاملات مشروط فيه الرجوع به الى حكم العقل والعلم ، لا الى تحكم الهوى والجهل . فكل حق وهدى وعلم وخير وترق ، فهو فى شرعة هذا الدين الفطرى دين . وكل باطل وضلال وجهل وشر وتدل ، فهو فى شرعته كفر .

هذا هو الدين الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم دينا عاما للبشر كافة . فهل تجد محيصا للبشر عنه ؟

كيف يعقل ذلك والفطرة أساسه ، والعقل نبراسه ، والعلم مادته ؟ وهل للبشر محيص عن هذه الثلاثة الأصول الطبيعية مهما حاولوا ذلك وتكلفوه ؟ فان كان فى العالم أصول كلما أمعنتَ فى البعد عنها ، ازددت قربا منها ، فهى الفطرة والعقل والعلم .

وهذا كله معنى قوله تعالى : « أفغير دين الله يبغون ، وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرها واليه يرجعون ؟ قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » .

« يأيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا اليكم نورا مبينا . فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم فى رحمة منه وفضل ، ويهديهم اليه صراطا مستقيما » .

« يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون » .

« ويرى الذين أوتوا العلم الذى أنزل اليك من ربك هو الحَق ، ويهدى الى صراط العزيز الحميد » ؟

محمد فريد وجدى

بحوث في المسائل الفقهية

تاريخ الفقه الاسلامى فى مصر

— ٣ —

كيف دخل الفقه الاسلامى مصر

لم يكن الفتح الاسلامى فتحا سياسيا فحسب ، ولم تكن الحملة التى أرسلها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب حملة حربية فقط ، فان العرب كانوا دائما يحملون مع السيف علم ثقافتهم ودينهم ، وكانوا يبسطون حيثما حلوا بساط عدلهم وأمنهم ، وكانت البلاد التى يفتحونها تتمتع سريعا بحكم عادل مستقر لأنه حكم الرحمة والمصلحة ، خال من التعقيد لأنه هو البساطة بعينها ، بعيد عن المشقة لأنه لا يعرف إلا اليسر والسهولة .

ولا تجد أمة راقية تكتفى أبدا بالفتح السياسى حتى تضيف إليه الفتح الثقافى .

بل إنه لا يفلح الفتح السياسى ، ولا تتوطد أقدام القائمين به إلا فى ظلال الفتح الثقافى ، والغزو الفكرى .

وها نحن أولاء نرى فى عصرنا الحاضر أثر الدعاوة السريع ، ومقامها العظيم ، وعناية الدول الحديثة بها ؛ ونرى أن الأمم المستعمرة تقدم ثقافتها ومبادئها بين يدى ما تبغى من فتح واستعمار ، وتغزو بجيوش العلم والفكر ، قبل أن تغزو بجيوش الحرب والطعان !

على هذه السنة كان الفتح الاسلامى لمصر ، فكان مع الفاتحين حملة ثقافية علمية دينية ، أعضاؤها من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذين شهدوا الرسالة ، وصحبوا الرسول ، وقرءوا القرآن ، ورووا الحديث ، وشهدوا ما كان يفعل أبو بكر وعمر بعد وفاة الرسول فيما يعرض للمسلمين من قضايا ، وما يحدث لهم من أحداث .

ودخل مصر بعد الفتح أصحاب آخرون ، وكان من هؤلاء وأولئك أمراء تولوا حكمها ، وقضاة فصلوا فى قضاياها ، ومفتون ، وفقهاء ، ورواة حديث .

فعلى يد هؤلاء جميعا دخل الفقه الاسلامى الى مصر ، وعلى يد هؤلاء جميعا وضع أساس الفقه فيها ، أو كما يقال فى التعبير الحديث : أسست مدرسته الأولى .

فما هو طابع هذه المدرسة ؟ وماذا كان أثرها فى مصر من حيث القوانين والأقضية ، والأحكام ؟ وهل كان لمصر أثر خاص فى فقه هذه المدرسة ؟

مدرسة الصحابة :

ألف محمد بن الربيع الجيزى كتابا فيمن دخل مصر من الصحابة ، ذكر فيه مائة ونيفا وأربعين صحابيا ، ثم جاء جلال الدين السيوطى فألف كتابا أسماه « در السحابة فيمن دخل مصر من الصحابة » جمع فيه من ذكرهم ابن الربيع ، وزاد مثلهم أو أكثر ممن ذكروا فى مصادر أخرى ، فبلغت عدة هؤلاء وهؤلاء أكثر من ثلاثمائة .

وقد تتبعت أخبار هؤلاء الصحابة ، فوجدت كثيرا منهم رواة حديث يتفاوتون فى عدد ما يروون منه ، فمنهم المقل ، ومنهم المكثر .

ووجدت قليلا منهم ممن عرفوا بالفتوى أو اشتغلوا بالقضاء ، ووجدت بعضهم قد مر بمصر مرورا ، أو أقام بها قليلا ، وبعضهم قد استوطنها واتخذها له دارا ، وبعضهم قد تولى شأنا من شئونها .

ونحن نعرض لبعض هؤلاء الأصحاب من قبيل التمثيل ، ليكون للقارئ فكرة عنهم :

فالزبير بن العوام : أحد الذين شهدوا الفتح ، وكان لهم أثر ظاهر فيه ، فهو الذى قدم الى عمرو فى مدد من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، وهو الذى اقتحم الحصن على من فيه ، فتم بذلك النصر للمسلمين .

وهو من المعروفين بالفتيا ، وقد ألحقه ابن القيم بالمتوسطين(١) ، ولكنه لم يقم فى مصر إقامة تجعل له فى فقهها أو روايتها أثرا بارزا ، وقد ذكروا أن المصريين لم يرووا عنه إلا حديثا واحداً .

وعبادة بن الصامت : كان سفير المسلمين الى المقوقس فى أثناء الحصار ، وهو أيضا من المفتين المتوسطين ، ولكنه لم تطل إقامته كذلك ، ولم يرو المصريون عنه إلا عشرة أحاديث .

والمقداد بن الأسود : من المقلين ، وقد شهد الفتح ، وللمصريين عنه حديثان .

وأبو ذر الغفارى : شهد الفتح أيضا ، وأقام بمصر زمنا ، ولهم عنه عشرون حديثا ، وهو فى المقلين من المفتين .

وربيعة بن شُرحبيل بن حسنة : شهد الفتح ، ولم يرو المصريون عنه شيئا ، ويظهر أنه كان ذا موهبة مالية دعت عمرو بن العاص أن يستعمله على المكس وهو الخراج (٢) .

(١) نقل ابن القيم فى كتابه أعلام الموقعين أن الصحابة عموما باعتبار فتاويهم قلة وكثرة ثلاث طوائف : مكثرون يمكن أن يجمع من فتوى كل منهم سفر ضخم ، ومتوسطون يجمع من فتوى كل منهم كتيب صغير ، ومقلون لا تعرف عن أحدهم إلا المسألة أو المسألتان أو الزيادة اليسيرة على ذلك . . الخ ١٣ ج ١

(٢) خطط المقريزى ١٢٣ ج ٢

ومسلمة بن مخلّد الأنصارى : قد ولاه معاوية على مصر ، وجمع له الصلاة والخراج وبلاد المغرب ، ولـكنه كان مشغولا بالغزوات ، فلم يرو له المصريون إلا حديثا واحدا ، ولم يعرف عنه فتاوى مع أنه أقام بمصر أميرا خمس عشرة سنة !

وهناك رجلان يحدثنا الرواة أنه كان لـكل منهما أثر فى المصريين ، ومقام محمود : أحدهما عقبة بن عامر الجهنى ، والثانى عبد الله بن عمرو بن العاص السهمى .

فأما عقبة ، فإنه لا يعد فى المفتين المقلين أو المـكثرين ، وإنما يعد من رواة الحديث (١) ، أقام بمصر زمنا طويلا ، ومات بها سنة ٥٨ هـ ، وتولى إمارتها من قبل معاوية بن أبى سفيان سنتين وثلاثة أشهر .

وكان من أحسن الناس صوتا بالقرآن (٢) ، وإتقانا لقراءته ، وله مصحف كتبه بيده ، قال أبو سعيد بن يونس : رأيت مصحف عقبة بمصر على غير تأليف مصحف عثمان .

ويظهر أنه كان رجلا ظريفا ، لين الجانب ، عذب الحديث ، وهـذه الصفات حببت فيه أهـل مصر ، وجعلت له فيهم منزلة سامية ، فأقبلوا على حـديثه يروونه عنه ، ويتناقلونه ، حتى عد من الذين أكثر عنهم المصريون ، فقد روى ابن عبد الحـكم أن للمصريين عنه نحو مائة حديث .

وأما عبد الله بن عمرو ، فـكان من نجباء الصحابة وعلمائهم ، عـدوه فى المـكثرين من المحدثين ، وفى المتوسطين من المفتين ، من طبقة عثمان بن عفان ، وسعد بن أبى وقاص ، وأبى موسى الأشعرى ، ومعاذ بن جبل ، ونحوهم .

كان له منزلة بين الصحابة ، حتى لقد تردد ذكره فى أيام التحكيم كمرشح للخلافة ، وحتى لقد قالت عائشة لعروة بن الزبير ، وهو أحـد الفقهاء السبعة بالمـدينة : يا بن أختى بلغنى أن عبد الله بن عمرو مارّ بنا الى الحج ، فالقه فاسأله ، فإنه قد حمل عن النبى صلى الله عليه وسلم علما كثيرا (٣) .

وكان له صحيفة كتب فيها ما سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم يسميها « الصادقة » ويقول : « فيها ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليس بينى وبينه فيها أحد » .

وكان يحج ويعتمر ، ويأتى الشام ، ثم يرجع الى مصر (٤) ، وقد روى عنه الحديث كثير من الصحابة والتابعين فى المدينة والشام ومصر .

---

(١) قال عنه الحافظ ابن حجر فى كتابه الاصابة : روى عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وروى عنه جماعة من الصحابة والتابعين ، منهم ابن عباس ، وأبو أمامة ، وخلق من أهل مصر . (٢) حسن المحاضرة ١٠٣ ج ١
(٣) تاريخ التشريع الاسلامى « المكية الشريعة » ص ١٣٦ . (٤) فجر الاسلام ٢٣٤ ج ١

وأكثر علم المصريين عنه . كانوا يرجعون اليه فى الفتيا ، ويكتبون عنه ما يحدث .
روى أبو سعيد بن يونس فى تاريخ مصر عن حَيْوَة بن شريح قال : « دخلت على حسين بن شُفَىّ ابن مانع الأصبحى وهو يقول : فعل الله بفلان ! فقلت : ماله ؟ فقال : عمد الى كتابين كان شفى سمعهما من عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنه ، أحدهما : قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كذا ، وقال رسول الله كذا . والآخر : ما يكون من الأحداث الى يوم القيامة ، فأخذهما فرمى بهما بين الخولة والرباب (١) .

وهذا الخبر يعطينا فكرة عما كان يرويه المصريون عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، فهو يذكر كتابين : فى أحدهما أقضية رسول الله صلى الله عليه وسلم وأحكامه ، وفى الآخر أخبار لا تتصل بالفقه ، والنوع الأول هو الفقه الذى كان يبثه فى المصريين عبد الله مستعينا عليه بما يروى من قضاء رسول الله وأحكامه .

ويظهر أنه كان للمصريين عناية خاصة بالنوع الثانى تزيد على عنايتهم بالنوع الأول . وسبب ذلك أنهم كانوا مولعين بالقصص ، والاستماع الى غريب الأخبار ، والتطلع الى معرفة ما سيحدث فى المستقبل من الأحداث ، أكثر من ولوعهم بالأحكام .

ولذلك راج القصص ، وكثر القصاص فى هذا العهد ، بل أصبح القصص عملا رسميا يعهد به الأمير الى بعض الناس ، ويعطيه عليه أجرا ، كالذى يحدثنا به الكندى فى كتابه « تاريخ القضاة والولاة » من أن سليم بن عِتر التُّجيبى كان يقص بمصر فى سنة ٣٨ هـ وجُمع له القضاء الى القصص ، ثم عزل عن القضاء وأفرد بالقصص (*)

وكان الناس يجتمعون الى القاصّ فيذكرهم بالله ، ويقص عليهم حكايات وأحاديث وقصصا عن الأمم الأخرى وأساطير ونحو ذلك لا يعتمد فيها على الصدق بقدر ما يعتمد على الترغيب والترهيب (٢)

هذا النوع أخر انتشار الفقه زمنا طويلا ، روى الكندى والمقريزى عن أبى قبيل وغيره أن أول من نشر العلم بمصر فى الحلال والحرام « وفى رواية ابن يونس : ومسائل الفقه » يزيد بن أبى حبيب ، وكانوا قبل ذلك إنما يتحدثون فى الترغيب والفتن (٣) . ويزيد هذا هو أحد الثلاثة الذين جعل إليهم عمر بن عبد العزيز الفتيا فى مصر .

---

(١) خطط المقريزى ج ٢ ص ٣٣٣ وفيها « قال أبو سعيد : يعنى بقوله الخولة والرباب مركبين كبيرين من سفن الجسر كانا يكونان عند رأس الجسر مما يلى الفسطاط تجوز من تحتهما لكبرهما المراكب » .

(*) سليم بن عتر هذا ليس صحابيا ولكنه من الطبقة الاولى من التابعين ، تولى القضاء سنة ٤٠ وتوفى بدمياط سنة ٦٥ (٢) فجر الاسلام ص ١٩٦ ج ١ (٣) خطط المقريزى ٣٣٣ ج ٢

وقد رأيت فيما رواه المصريون عن عبد الله بن عمرو أحاديث كثيرة من هـذا النوع .

منها ما روى فى مسند الامام احمد عن أبى قبيل ـ وهو من الرواة المصريين ـ قال « كنا عند عبد الله بن عمرو بن العاص ، وسئل : أى المدينتين يفتح أولاً : القسطنطينية أو رومية ؟ فدعا عبد الله بصندوق له حلق ، فأخرج منه كتابا ، ثم قال : بينما نحن جلوس حول النبى صلى الله عليه وسـلم نكتب إذ سئل رسول الله : أى المـدينتين يفتح أولاً : القسطنطينية أو رومية ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : مدينة هرقل تفتح أولاً ، يعنى القسطنطينية .

ومنها عن أبى قبيل عن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من مات يوم الجمعة ، أو ليلة الجمعة ، وقته فتنة القبر . . . الخ الخ

وإنك لتجد كثيرا من الأحاديث التى يرويها المصريون عن غير عبد الله بن عمرو أيضا من هذا النوع الذى يدور حول الترغيب والترهيب ، والأخبار والقصص ، والنبوءات ، ونحو ذلك .

تلك صورة عن الرواية والفتيا ، لهذا العهد ، من تاريخ الفقه فى مصر ، يمكننا بعد ذلك أن نستلخص منها هذه النتائج :

(١) لم تـكن الرواية كثيرة ، ولم يكن فى الصحابة الذين دخـلوا مصر أحد له أثر بارز فى الفتوى سوى عبد الله بن عمرو .

(٢) كان المصريون يروون عن الصحابة أحاديث فى موضوعات شتى ، منها ما يتصل بالفقه ومنها ما لا يتصل به ، وكانت عنايتهم بالنوع الثانى أكبر .

(٣) لم يكن الفقه فى هذا العهد منتشرا كعلم يقصد اليه خاصة .

هـذا كله فيما يتعلق بالرواية والفتيا ، وكان الى جانب ذلك حركة أخرى أثرت فى الفقه على يد القضاة ، ولها حديث بعد هذا الحديث إن شاء الله ؟

محمد محمد المدنى
المدرس فى كلية الشريعة

هل العقل يشقى صاحبه ؟

قال أبو الطيب المتنبى :

ذو العقل يشقى فى النعيم بعقله وأخو الجهالة فى الشقاوة ينعم

ولو سألت الأكثرين وجدتهم على مذهب أبى الطيب . والحق أن العقل لا يشقى صاحبه إلا إذا كسفه جهل فطالبه بالمحال : كأن يتمنى أن يكون نعيمه المادى مقيما ، فى عالم كل ما فيه زائل ، ويغبى عما وراءه من عالم الروح الذى ليس لنعيمه وصف . فمثل هـذا العقل الناقص جدير أن يشقى صاحبه ولا كرامة !